

بِحُجُوتِ قُرْآنِيهِ

فِي

التَّوْحِيدِ وَالشِّرْكِ

بِحُجُوتِ عَن :

تَحْدِيدِ مَعَالِمِ التَّوْحِيدِ وَالشِّرْكِ

مَعَ تَطْبِيقَاتٍ عَمَلِيَّةٍ

تَأليف

العلامة المحقق

جعفر النجفاني



# بحوث قرآنية

في

## التوحيد والشرك

يبحث عن

تحديد معالم التوحيد و الشرك

مع تطبيقات عملية

**تأليف**

العلامة الفقيه

جعفر السبحاني

سبحانی تبریزی، جعفر، ۱۳۰۸ -

بحوث قرآنیة فی التوحید والشرك / تألیف جعفر السبحانی. - قم : مؤسسة الإمام

الصادق علیه السلام، ۱۴۲۶ق. = ۱۳۸۴

ISBN:964-357-217-X

ص ۱۷۶

کتابنامه : ص. ۱۶۳-۱۶۹ همچنین به صورت زینونیس .

فهرستونیس بر اساس اطلاعات فسا

۱. توحید - جنبه های قرآنی اسلام . شرك بين جنبه های قرآنی . مؤسسه امام

صادق علیه السلام . ب. عنوان : جعفر السبحانی . علوم اسلامی ۲۹۷/۱۵۹

۱۳۸۴ ۲۹۷/۱۵۹ BP

بحوث قرآنیة فی التوحید والشرك	اسم الكتاب:	<input type="checkbox"/>
العلامة المحقق جعفر السبحانی	المؤلف:	<input type="checkbox"/>
مؤسسة الإمام الصادق علیه السلام	تنضيد الحروف:	<input type="checkbox"/>
مؤسسة الإمام الصادق علیه السلام	المطبعة:	<input type="checkbox"/>
الثالثة	الطبعة:	<input type="checkbox"/>
رمضان المبارك ۱۴۲۶ هـ	التاريخ:	<input type="checkbox"/>
۳۰۰۰ نسخة	كمية الطبع:	<input type="checkbox"/>
مؤسسة الإمام الصادق علیه السلام	الناشر:	<input type="checkbox"/>

E-mail: info@imamsadeq.org

http://www.imamsadeq.org

توزیع

مکتبة التوحید

قم - ساحة الشهداء - ۷۷۴۵۴۵۷ و ۲۹۲۵۱۵۲، فکس ۲۹۲۲۳۳۱

قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا  
اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾

النحل: ٣٦

وقال عز اسمه:

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ  
فَاعْبُدُونِ﴾

الأنبياء: ٩٢



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وآله  
وصحبه المتتبعين.

أما بعد،

فهذه بحوث موجزة حول التوحيد والشرك في القرآن الكريم  
أقدمها إلى الجيل الصاعد من أبناء أمتنا الإسلامية بغية الحفاظ على  
كيانهم ووحدة كلمتهم وإنقاذهم من مخالب الشرك وهدايتهم إلى  
حظيرة التوحيد.

فإن الهدف الأسمى لجميع الرسل هو مكافحة الشرك وتحطيم  
قلاعه، قال سبحانه:

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا  
الطَّاغُوتَ﴾ (١)

وقد أضحت مسألة التوحيد والشرك من المسائل الهامة في

عصرنا هذا، لا سيما وأنها صارت ذريعة لتشتيت الصفوف وتمزيق الوحدة الإسلامية، مع أنّ الواجب على كلّ مسلم الحفاظ على توحيد الكلمة وتعزيز أواصر الأخوة.

ويأتي الكلام في الموضوع ضمن مقدمة وفصول.



## كلمة التوحيد و توحيد الكلمة

بُني الإسلام على كلمتين: «كلمة التوحيد» والشهادة على أنه لا إله إلا الله ونفي الوهية وربوبية كلٍّ موجود سواه، و«توحيد الكلمة» والاعتصام بحبل الله المتين والنهي عن التفرق والتشتت وراء مسائل هامشية لا تمس - في كثير من الأحيان - جوهر الإسلام، ورائدنا في الدعوة إلى الوحدة وحفظ كيان الإسلام، قوله سبحانه: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١).

ولو سبرنا أقوال النبي ﷺ وسيرته العملية نلمس منها اهتماماته الكبيرة بتوحيد الكلمة ولم الشمل، فإن الوحدة هي دعامة القوة والرفاه ونيل السعادة، كما أن التفرقة هي بؤرة الضعف والشقاء والاندحار.



ولنقتصر من سيرته وكلامه ﷺ على الأمور التالية:

أ. قدم النبي ﷺ يثرب، و الأوس و الخزرج يقودان جملة وشبانهم يطوفون حوله وكانت القبيلتان هما الحجر الأساس لبناء الدعوة الإسلامية، ولكن كان بين الطائفتين قبل اعتناق الإسلام حروب طاحنة أسفرت عن مصرع العديد منهم و كانت البغضاء والعداوة متفشية بينهم، وفي تلك الظروف هبط عليهم النبي ﷺ ورأى ضرورة رأب الصدع وتقريب الخطى بين القبيلتين بل جعلها اخوين متحابين ومتراحمين.

فأول خطوة قام بها هي التآخي بينهما جسماً لمادة الخلاف وإنساء للماضي.<sup>(١)</sup>

ب. انتصر المسلمون على قبيلة بني المصطلق، فبينما رسول الله على مائتهم نشب النزاع بين رجل من الأنصار ورجل من المهاجرين، فصرخ الأنصاري، فقال: يا معاشر الأنصار، وصرخ الآخر، وقال: يا معشر المهاجرين، فلما سمعها النبي ﷺ قال: دعوها فاتها متنتة...<sup>(٢)</sup> يعني اتها كلمة خبيثة، لأنها من دعوى الجاهلية، والله سبحانه جعل المؤمنين إخوة وصيرهم حزباً واحداً، فينبغي أن تكون الدعوة في كل

١ . الدر المنثور: ٢/٢٨٧، تفسير الآية ١٠٣ من سورة آل عمران، نقل عن مقاتل بن حيان أن هذه الآية نزلت في قبيلتين من قبائل الأنصار، إلى أن قال: فقدم النبي ﷺ فأصلح بينهم.

٢ . ابن هشام: السيرة النبوية: ٣/٣٠٣، غزوة بني المصطلق.

مكان وزمان لصالح الإسلام والمسلمين عامة، لا لصالح قوم ضد الآخرين، فمن دعا في الإسلام بدعوى الجاهلية يعزر.

فالنبي ﷺ يصف كل دعوة تشق عصا المسلمين وتمزق وحدتهم بآتها دعوى متنة، وكيف لا تكون كذلك وهي توجب انهدام دعامة الكيان الإسلامي.

ج. نزل النبي ﷺ دار هجرته والتفت حوله القبيلتان: الأوس والخزرج، فمرَّ شاس بن قيس - الذي كان يحمل في قلبه ضغناً للمسلمين - على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج في مجلس يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من الفتنهم وجماعتهم، وصلاح ذات بينهم على الإسلام، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية.

فقال: قد اجتمع ملا بني قبيلة بهذه البلاد، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملوهم بها من قرار، فأمر فتى شاباً من اليهود كان معهم، فقال: اعمد إليهم، فاجلس معهم، ثم اذكر يوم بُعث، يوم إقتلت فيه الأوس والخزرج، وكان الظفر فيه يومئذ للأوس على الخزرج، وكان على الأوس يومئذ حُضير بن سماك الأشهلي، وعلى الخزرج عمرو بن النعمان البياضي، فقتلا جميعاً.

دخل الشاب اليهودي مجتمع القوم فأخذ يذكر مقاتلتهم ومضاربتهم في عصر الجاهلية فأحیی فيهم حميتها حتى استعدوا للنزاع والجدال، وأخذ الشاب يوجب نار الفتنة.

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين، حتى جاءهم فقال ﷺ: يا معشر المسلمين! الله، الله، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم، بعد أن هداكم الله بالإسلام، وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم من الكفر وألّف به بين قلوبكم.<sup>(١)</sup>

وقد تركت كلمة النبي ﷺ وقعاً في نفوسهم، حيث فطنوا إلى أنها نزعة من نزعات الشيطان، فندموا على ما وقع منهم ثم انصرفوا. إنّ كلمة الرسول، كشفت القناع عن الخدعة اليهودية، وأطفأت نار الفتنة في مهدها، ودخلت في القلوب المؤمنة وصيرتهم إخواناً متحابين.

هذه القصة وكم لها من نظير تعكس لنا المحاولات المستميتة التي يبذلها أعداء الإسلام بغية الإطاحة بوحدة المسلمين وتمزيق شملهم.

ولو كان في عصر الرسول شاس أو شاسان من اليهود، ففي الوقت الحاضر المئات بل الألوف منهم جندوا قواهم الشيطانية، وأثاروا النعرات الطائفية بين المسلمين من خلال طرح مسائل هامشية لتكدير صفوفهم.

إن أساليب الأعداء في إثارة الفتن لا تعدُّ ولا تُحصى، ولهم مخططات مختلفة حسب ما تقتضيه الظروف والبيئات.

فالعقل يفرض على المسلمين رصّ صفوفهم، وتوحيد كلمتهم  
بغية الوقوف أمام تلك الخطط والمؤامرات .

إنّ مسألة التوحيد ونبذ الشرك من المسائل الهامة التي تعد  
الهدف الأسنىّ للأنبياء والمرسلين وكبار المصلحين. فالتوحيد رمز  
الإسلام وعزة المسلمين .

هذا ومع الاعتراف بأهميته ولكن وجدت - من خلال البحث في  
التوحيد والشرك - مسائل هامشية صارت ذريعة للاختلاف ووسيلة  
للتشتت فأثرنا في هذه الرسالة المتواضعة استنطاق القرآن الكريم في  
هذه المسائل والاستتارة بنور السنة النبوية التي اتفق المسلمون على  
كونها المصدر الثاني للعقيدة والشريعة بعد الذكر الحكيم .

وأخيراً ندعو المجتمع الإسلامي إلى ما دعا به القرآن الكريم،  
وقال: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ .

فالمسلمون ملة واحدة يجمعهم إله واحد، وكتاب واحد، ودين  
واحد، وشريعة واحدة فما يجمعهم أكثر مما يفرقهم .

والجميع كما يقول شاعر الأهرام:

أنا لتجمعنا العقيدة أمة      ويضمّنا دين الهدى أتباعا  
ويؤلف الإسلام بين قلوبنا      مهما ذهبنا في الهوى أشياعا



## الفصل الأول

### تحديد الإيمان و الكفر

الإيمان عبارة عن الإذعان بالله سبحانه واليوم الآخر ورسالة النبي ﷺ فهذه الأمور الثلاثة تشكّل دعائم الإيمان وأركانه، وما سواها ترجع بشكل إليها.

نعم لما كان ما خلف النبي ﷺ من تراث في مجال المعارف والأحكام ضخماً لا يمكن استحضاره في الضمير ثم التصديق به، اضطرّ العلماء إلى تقسيم ما جاء به النبي ﷺ إلى قسمين: قسم معلوم بالتفصيل كتوحيد سبحانه والحشر يوم المعاد في مجال العقائد، ووجوب الصلاة والزكاة ونحوهما في مجال الأحكام، وقسم منه معلوم بالإجمال نعلم وروده في الكتاب والسنة، فلا محيص للمؤمن أن يؤمن بالأول على وجه التفصيل، وبالثاني على وجه الإجمال.

قال عضد الدين الايجي: الإيمان: التصديق للرسول فيما علم مجيئه به ضرورة وتفصيلاً فيما علم تفصيلاً، وإجمالاً فيما علم إجمالاً.<sup>(١)</sup>

وبعبارة أوضح: أنّ ما جاء به الرسول ﷺ إنّما أن يعلم به بالضرورة كوجوب الصلاة والزكاة والجهاد والحج، وإّما أن لا يعلم به كذلك.

فالمؤمن هو الذي يعتقد بصحّة كلّ ما بعث به الرسول ﷺ إلى أمّته، غير أنّ المعلوم بالضرورة، يؤمن به تفصيلاً و ما لم يعلم، يؤمن به على وجه الإجمال.

ويظهر ممّا تقدم أنّ الإيمان يتجلى في أصول ثلاثة:

الأصل الأول: الإيمان بالله سبحانه وتوحيده.

الأصل الثاني: الإيمان بالآخرة وحشر الناس في اليوم الموعود.

الأصل الثالث: الإيمان برسالة الرسول ﷺ وما جاء بها.

والاعتقاد بهذه الأصول الثلاثة يورث الإيمان ويدخل الإنسان في حظيرته ويتّفي في ظلاله وظلال الإسلام.

هذا ما عليه علماء الإسلام دون فرق بين طائفة وأخرى، وقد آثروا في ذلك ما روي عن النبي ﷺ في غير واحد من المواقف.

١. روى الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام، عن آبائه، عن علي عليه السلام، قال: «قال النبي ﷺ: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوا حرمت عليّ دماؤهم وأموالهم»<sup>(١)</sup>.

٢. أخرج الشيخان، عن عمر بن الخطاب، أنّ علياً صرخ: يا رسول الله على ماذا، أقاتل؟ قال ﷺ: «قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وإنّ محمداً رسول الله، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله». (١)

٣. روى أبو هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال:

«لا أزال أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله». (٢)

إلى غير ذلك من النصوص الدالة على أنّ محور الإسلام والكفر كلمة «لا إله إلا الله ومحمد رسول الله» و لو اقتصر في بعض على أصل واحد ولم يذكر المعاد وحشر الناس أو لم يذكر رسالته فلوضوحها.

نعم، ليس الإيمان بالأصول الثلاثة فقط مورثاً للسعادة، ومنقذاً عن العذاب والعقاب، بل لا بدّ من انضمام العمل إليه واقترانه بامثال أوامره ونواهيه في الكتاب والسنة، وذلك من الوضوح بمكان، وقد وردت في هذا الصدد روايات عديدة تقتصر على قليل منها:

١. روى عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ:

«بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وإنّ محمداً رسول

١. صحيح البخاري: ١٠/١، كتاب الإيمان ١ صحيح مسلم: ١٧/٧، كتاب فضائل

علي ﷺ.

٢. الشافعي: الأم: ١٥٧/٦، اقرأ كلامه فيه حول هذا الموضوع.



الله، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحجّ، وصوم شهر رمضان»<sup>(١)</sup>.

٢. ما روي عن رسول الله ﷺ متصافراً أنّه قال:

«من شهد أن لا إله إلا الله، و استقبل قبلتنا، وصلى صلاتنا، وأكل ذبيحتنا، فذلك المسلم، له ما للمسلم وعليه ما على المسلم»<sup>(٢)</sup>.

وعلى ضوء ذلك فالذي يميز المؤمن عن الكافر هو الاعتقاد بالأصول الثلاثة، وأما ما يوجب السعادة الأخروية فهو في ظلّ العمل بالواجبات والانتهاء عن المحرمات.

ويشير إلى الأمر الأول ما مرّ من الروايات التي تركّز على العقيدة ولا تذكر من العمل شيئاً. كما تشير إلى الأمر الثاني الروايات التي تركّز على العمل وراء العقيدة.

إذا عرفت ما يُخرج الإنسان من الإيثار ويدخله في الكفر، يعلم منه أنّه لا يصح تكفير فرقة من الفرق الإسلامية مادامت تعترف بالأصول الثلاثة. وفي الوقت نفسه لا تنكر ما علم كونه من الشريعة بالضرورة كوجوب الصلاة والزكاة وأمثالها.

هذا ما نصّ عليه جمهور المتكلمين والفقهاء.<sup>(٣)</sup>

وهنا نحن نذكر بعض الشواهد على هذا الموضوع.

١. صحيح البخاري: ١/١٦، باب أداء الخمس من كتاب الإيثار.

٢. ابن الأثير: جامع الأصول: ١/١٥٨.

٣. لاحظ المواقب للابن العربي: ٣٩٢.

١. قال ابن حزم عندما تكلم «فيمن يكفر ولا يكفر»:

«وذهبت طائفة إلى أنه لا يكفر ولا يفسق مسلم بقول قاله في اعتقاد أو فتيا، وإن كل من اجتهد في شيء من ذلك فدان بما رأى أنه الحق فإنه مأجور على كل حال، إن أصاب الحق فأجران، وإن أخطأ فأجر واحد. وهذا قول ابن أبي ليلى، وأبي حنيفة، والشافعي، وسفيان الثوري، وداود بن علي وهو قول كل من عرفنا له قولاً في هذه المسألة من الصحابة (رضوان الله عليهم) ما نعلم منهم في ذلك خلافاً أصلاً»<sup>(١)</sup>.

٢. وقال شيخ الإسلام تقي الدين السبكي: إن الإقدام على تكفير المؤمنين عسر جداً، وكل من في قلبه إيمان، يستعظم القول بتكفير أهل الأهواء والبدع مع قولهم لا إله إلا الله، محمد رسول الله، فإن التكفير أمر هائل عظيم الخطر.<sup>(٢)</sup>

٣. وقال أحمد بن زاهر السرخسي الأشعري: لما حضرت الوفاة أبا الحسن الأشعري في داري ببغداد أمر بجمع أصحابه ثم قال: اشهدوا على أنني لا أكفر أحداً من أهل القبلة بذنوب، لأن رأيهم كلهم يشيرون إلى معبود واحد والإسلام يشملهم ويعمهم.<sup>(٣)</sup>

١. ابن حزم: الفصل: ٢٩١/٣.

٢. الشعرائي:، اليواقيت والجواهر: ٢/١٢٥، ط عام ١٣٧٨ هـ.

٣. الشعرائي: اليواقيت والجواهر: ٢/١٢٦.

٤. وقال التفتازاني: إنَّ مخالف الحقّ من أهل القبلة ليس بكافر مالم يخالف ما هو من ضروريات الدين كحدوث العالم وحشر الأجساد، واستدل بقوله: إنَّ النبي و من بعده لم يكونوا يفتشون عن العقائد وينبهون على ما هو الحقّ.<sup>(١)</sup>

### السنة النبوية وتكفير المسلم

قد وردت أحاديث كثيرة تنهى عن تكفير المسلم الذي أقر بالشهادتين فضلاً عمّن يمارس الفرائض الدينية، وإليك طائفة من هذه الروايات:

١. بني الإسلام على خصال: شهادة أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمداً رسول الله، والاقرار بما جاء من عند الله، و الجهاد ماض منذ بعث رسله إلى آخر عصابة تكون من المسلمين... فلا تكفروهم بذنب ولا تشهدوا عليهم بشرك.<sup>(٢)</sup>

٢. أخرج أبو داود عن نافع، عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «أيما رجل مسلم أكفر رجلاً مسلماً فإن كان كافراً وإلا كان هو الكافر».<sup>(٣)</sup>

١. التفتازاني: شرح المقاصد: ٥/٢٢٧.

٢. كنز العمال: ١/٢٩، برقم ٣٠.

٣. سنن أبي داود: ٤/٢٢١، برقم ٤٦٨٧، كتاب السنة.

٣. أخرج مسلم، عن نافع، عن ابن عمر، أنّ النبي ﷺ قال: «إذا كفر الرجل أخاه فقد باء بها أحدهما»<sup>(١)</sup>.

٤. أخرج مسلم، عن عبد الله بن دينار، أنّه سمع ابن عمر، يقول: قال رسول الله ﷺ: «أبيا امرءٍ قال لأخيه يا كافر، فقد باء بها أحدهما إن كان كما قال، وإلا رجعت عليه»<sup>(٢)</sup>.

٥. عقد البخاري باباً باسم «المعاصي من أمر الجاهلية ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك»، يقول النبي ﷺ: «إنك امرء فيك جاهلية، وقول الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾»<sup>(٣)،(٤)</sup>.

٦. أخرج الترمذي في سننه عن ثابت بن الضحاك، عن النبي ﷺ قال: «ليس على العبد نذر فيما لا يملك، ولا عن المؤمن كقاتله، ومن قذف مؤمناً بكفر فهو كقاتله»<sup>(٥)</sup>.

٧. أخرج ابو داود عن أسامة بن زيد قال: بعثنا رسول الله ﷺ

١. صحيح مسلم: ٥٦/١، باب «من قال لأخيه المسلم يا كافر» من كتاب الإيمان.

٢. صحيح مسلم: ٥٧/١، باب «من قال لأخيه المسلم يا كافر» من كتاب الإيمان، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده: ٢٢/٢ و ٦٠ و ١٤٢؛ وأخرجه الترمذي في سننه: ٢٢/٥ برقم ٢٦٣٧، كتاب الإيمان.

٣. النساء: ٤٨.

٤. صحيح البخاري: ١١/١، باب «المعاصي من أمر الجاهلية» من كتاب الإيمان.

٥. سنن الترمذي: ٢٢/٥ برقم ٢٦٣٦، كتاب الإيمان.

سرية إلى الحرقات، فندروا بنا فهربوا فأدركنا رجلاً فلماً غشيناه قال: لا إله إلا الله، فضريناه حتى قتلناه فذكرته للنبي ﷺ فقال: «من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة؟» قال: قلت: يا رسول الله، إننا قاهها مخافة السلاح والقتل، فقال: «أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم من أجل ذلك قاهها أم لا؟ من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة؟» قال: فما زال يقوها حتى وددت أني لم أسلم إلا يومئذ. (١)

٨. لما خاطب ذو الخويصرة الرسول الأعظم ﷺ بقوله: اعدل، ثارت ثورة من كان في المجلس، منهم خالد بن الوليد قال: يا رسول الله الا أضرب عنقه؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا، فلعله يكون يصلي» فقال: إنه رب مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه، فقال رسول الله ﷺ: «إني لم أؤمر أن أنقب قلوب الناس ولا أشق بطونهم». (٢)

وعلى ضوء هذه الأحاديث المتضاربة والكلمات المضينة عن الرسول ﷺ وعلمائنا السابقين المقتفين أثره يعلم أن تكفير مسلم ليس بالأمر الهين بل هو من الموبقات، قال سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. (٣)

١. سنن أبي داود: ٣/ ٤٥ برقم ٢٦٤٣؛ صحيح البخاري: ٥/ ١٤٤، باب بعث النبي

اسامة بن زيد إلى الحرقات من كتاب المغازي.

٢. صحيح البخاري: ٥/ ١٦٤، باب بعث علي وخالد بن الوليد من كتاب المغازي.

٣. آل عمران: ١٠٥.

لم يزل المسلمون منذ قرون غرضاً لأهداف المستعمرين ومخططاتهم في بث الفرقة بين صفوفهم وجعلهم فرقاً وأماً متناحرة ينهش بعضهم بعضاً، وكأنتهم ليسوا من أمة واحدة كل ذلك ليكونوا فريسة سائغة للمستعمرين. وبالتالي ينهبوا ثرواتهم ويقضوا على عقيدتهم وثقافتهم الإسلامية بشتى الوسائل، ولأجل ذلك نرى أنه ربما يُشعلون نيران الفتن لأجل مسائل فقهية لا تمس إلى العقيدة بصله فيكفر بعضهم بعضاً مع أن المسائل الفقهية لم تزل مورد خلاف ونقاش بين الفقهاء، فمثلاً:

في مسألة قبض اليد اليسرى باليمينى أقوال فمن قائل بالاستحباب، إلى آخر قائل بالكراهة، إلى ثالث قائل بالتحريم. فلكل مجتهد رأيه فلا يجوز لفقيه أن يكفر فقيهاً أو اتباعه في مسألة القبض، وقس على ذلك مسائل كثيرة تعد من الأحكام وللاجتهاد فيها مجال واسع.

ونظير ذلك بعض المسائل العقائدية التي ليست من ضروريات الإسلام بل للعقل والاستدلال دور في تحقيقها، مثلاً:

عصمة الأنبياء قبل البعثة أو بعدها، أو حدوث القرآن وقدمه، أو صفاته تعالى عين ذاته أو زائد عليها، فليست هذه المسائل محور التوحيد والشرك والإيمان والكفر ولكل محقق، عقيدته ودليله ولا يجوز لآخر تكفيره، ويكفي في ذلك، الاعتقاد بما جاء به النبي ﷺ إذا لم يكن من أهل التحقيق.

وبما ذكرنا يعلم أنّ تكفير طائفة ، طائفة أخرى لمسائل فقهية أو عقائدية لم يثبت كونها من ضروريات الدين، أمر محذور وزلة لا تغتفر وخدمة للاستعمار الغاشم لا غير.

ونحن لا نريد الإطالة في الكلام وتكثير الأمثلة، و تكفي في الاطلاع دراسة وضع المسلمين وتشتتهم ضمن اختلاف بعضهم مع بعض في فروع فقهية أو عقائدية ليست من الضروريات.

## الفصل الثاني

### التوحيد، مراتبه وأقسامه

التوحيد ونبذ الشرك من أهمّ المسائل العقائدية التي تصدّرت المفاهيم والتعاليم السماوية على الإطلاق، ويعدّ أساساً لسائر المعارف الإلهية التي جاء بها رسل الله في كتبهم وكلماتهم.

وبما أنّ للتوحيد مراتب بينها علماء الإسلام في كتبهم العقائدية نأتي بها على سبيل الإجمال ونردف كلّ قسم منها بآية أو آيات قرآنية ثمّ نبحث بأسهاب عن التوحيد في العبادة الذي هو آخر مراتبه.

فنقول: إنّ للتوحيد أقساماً:

#### الأول: التوحيد في الذات

والمراد منه هو أنّه سبحانه واحد لا نظير له، فرد لا مثيل له، بل يمتنع أن يكون له نظير أو مثيل، قال سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾<sup>(١)</sup>.



وقال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ \* اللَّهُ الصَّمَدُ \* لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ \* وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾. (١)

### الثاني: التوحيد في الخالقية

والمراد أنه ليس في صحيفة الوجود خالق غير الله سبحانه، ولا مؤثر سواه، وإن ما في الكون من السماوات والأرض والجبال والبحار والعناصر والمعادن والنباتات والأشجار فهو مخلوق لله سبحانه، فوجودها وأفعالها وآثارها كلها مخلوقة لله تبارك وتعالى.

فالشمس وحرارتها، والقمر وإنارته، والنار وإحراقها وغير ذلك من الفواعل والأسباب كلها مخلوقة لله تبارك وتعالى مع آثارها ومسبباتها، قال سبحانه: ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (٢). وقال سبحانه: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (٣) وقال تعالى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ﴾. (٤) لكن جرت مشيئته على خلق الأشياء عن طريق أسبابها فكون العالم كله مخلوقاً لله سبحانه ليس بمعنى إنكار علاقة السببية، كما سيوافيك.

١. الاخلاص: ١-٤.

٢. الرعد: ١٦.

٣. الزمر: ٦٢.

٤. الأنعام: ١٠٢.

### الثالث: التوحيد في الربوبية

والمراد منه انّ للكون مدبراً واحداً متصرفاً كذلك لا يشاركه في التدبير شيء فهو سبحانه المدبر الوحيد للكون على الإطلاق، قال سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾<sup>(١)</sup> وقال سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾<sup>(٢)</sup>.

تجد أنه سبحانه يذكر بعد خلق السماوات والأرض، تدبير أمر الخلق، وربوبيتها فيحصره في ذاته فلا مدبر ولا رب إلا هو، فيكون الخالق هو الموجد، والرب والمدبر لأمر الخلق ودوامها واستمرارها.

نعم ثمة سؤال وهو أنه إذا لم يكن مدبر سواه فما معنى قوله سبحانه: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾<sup>(٣)</sup> أو قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾<sup>(٤)</sup> فإن الحفظة جمع «الحافظ» وهم الذين

١. يونس: ٣.

٢. الرعد: ٢.

٣. النازعات: ٥.

٤. الأنعام: ٦١.

يحفظون العباد ويدبّرون شؤون حياتهم، أفهناك تناف بين هذا الإثبات  
والحصر السابق؟!

والجواب أنّ من كان ملتمساً بحقائق القرآن وعارفاً بلسانه يقف  
على عدم وجود أيّ تناقض وتناف بين ذلك النفسي وهذا الإثبات،  
وذلك لأنّ الهدف من حصر التدبير بالله سبحانه هو حصره به على  
وجه الاستقلال، أي من يدبر بنفسه غير معتمد على شيء.

وأما المثبت لتدبير غيره، فيراد منه أنّه يدبر بأمره وإذنه وحوله  
وقوته على النحو التبعية فكل مدبر في الكون من ملك وغيره فهو مظهر  
أمره ومنفَّذ إراداته.

وليس هذا بعزيز في القرآن ترى أنّه سبحانه ينسب فعلاً لنفسه  
وفي الوقت نفسه ينسبه لشخص آخر، ولا تناقض، لاختلاف النسبتين  
في الاستقلال والتبعية، قال سبحانه: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ  
مَوْتِهَا﴾<sup>(١)</sup> وقال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾<sup>(٢)</sup>.

فالتوفي على وجه الاستقلال هو فعله سبحانه، وأما التوفي بحوله  
وقدرته وإرادته وأمره فهو فعل الرسل.

وبعبارة أخرى: هناك فعل واحد وهو التوفي، يُنسب إلى الله بنحو

١. الزمر: ٤٢.

٢. الأنعام: ٦١.

وإلى رسله بنحو آخر، دون أي تناف وتنافر بين هاتين النسبتين.

ونظيره قوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ﴾<sup>(١)</sup> وفي الوقت نفسه يعتبر الملائكة كتبة الأعمال ويقول: ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾<sup>(٢)</sup>.

وبذلك نقف على معنى التوحيد في التدبير والتأثير، وليس معناه خلوّ كل موجود من التأثير وإن آثار الأسباب تفاض من الله سبحانه بلا واسطة، بل معناه أنّ الآثار والمسببات، للأسباب نفسها، فالشمس مضيئة، والقمر منير والنار محرقة حقيقة، ولكن بجعل منه سبحانه، فالجميع من مظاهر أمره وإرادته.

ومن زعم أنّ معنى التوحيد في الربوبية هو نفي الآثار عن الأسباب فقد نازع وجدانه، كما نازع الوحي المبين حيث إنه يثبت الأثر الطبيعي لكل سبب وفي الوقت نفسه يربطهما بالله سبحانه، قال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾<sup>(٣)</sup>.

تجد أنّ الوحي اعترف بسببية الماء لخروج الثمرات الطيبة وليست

١. النساء: ٨١.

٢. الزخرف: ٨٠.

٣. البقرة: ٢٢.

هذه الآية وحيدة في هذا الباب، بل في القرآن الكريم نماذج من هذا النوع، قال سبحانه: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ لِبَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

فتستدل الآية على أن تدبيره سبحانه فوق تدبير الفواعل الطبيعية، وذلك بشهادة أن الجنات تثمر أثماراً مختلفة مع وحدة الشرائط والظروف المحيطة بها من وحدة الماء والأرض، وهذا يدل على أن وراء الأمور الطبيعية والأسباب المادية مدبراً فوقها، وعلى الرغم من هذا الاعتراف إلا أنه لا ينفي تأثير العوامل الطبيعية من دون أن يراها كافية في خلق هذا التنوع.

هذا هو منطوق القرآن في التوحيد والتدبير والربوبية، فمن أراد التفصيل فليرجع إلى الكتب العقائدية.

#### الرابع: التوحيد في التشريع والتقنين

والمراد منه أن التشريع والتقنين للإنسان حق مختص بالله تبارك وتعالى فهو المشرع الوحيد للمجتمع الإنساني ولا يحق لأحد التقنين. قال سبحانه: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾<sup>(٢)</sup> والمراد من

١. الرعد: ٤.

٢. يوسف: ٤٠.

حصر الحاكمية بالله هو حصر الحاكمية التشريعية، فالآية تهدف إلى أنه لا يحق لأحد أن يأمر وينهى ويحرم ويحلل سوى الله سبحانه ولأجل أن المراد من الحكم المختص بالله سبحانه، هو التشريع أردفه بقوله: ﴿أَمَرَ إِلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ فالمراد من الأمر هنا هو الأمر التشريعي.

وقال سبحانه: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾<sup>(١)</sup> فالآية تقسم القوانين إلى : إلهية وجاهلية، وبما أن ما كان من صنع الفكر البشري ليس إلهياً فيكون حكماً جاهلياً البتة .

### الخامس: التوحيد في الطاعة

والمراد أنه لا يجب طاعة سوى الله تعالى، فهو وحده يجب أن يُطاع وأن تمتثل أوامره ونواهيه، وأما طاعة غيره فتجب بإذنه وأمره وإلا كانت محرمة موجبة للشرك في الطاعة، قال سبحانه: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾<sup>(٢)</sup> والدين في الآية بمعنى الطاعة أي مخلصين الطاعة له ولا يطيعون غيره.

نعم تجب طاعة النبي ﷺ لأمره تعالى، قال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾<sup>(٣)</sup>.

١. المائدة: ٥٠.

٢. البينة: ٥.

٣. النساء: ٦٤.

وفي آية أخرى عُدَّت طاعة النبي ﷺ من مظاهر طاعة الله وقال:  
 ﴿وَمَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ (١).

وعلى ضوء ذلك فإطاعة النبي ﷺ وأولي الأمر والوالدين إنما هو بإذنه وأمره سبحانه ولولاه لم تكن طاعتهم واجبة، بل ولا الانقياد لأوامرهم جائزة فهناك مطاع بالذات وهو الله وغيره مطاع بالعرض وبأمره.

### السادس: التوحيد في الحاكمية

والمراد منه أن الحكم على الناس حقّ مختص بالله تبارك و تعالی، و حكومة الغير يجب أن تنتهي إلى الله تبارك و تعالی، وذلك لأنّ الحكومة و الحاكمية في المجتمع لا تنفك عن التصرف في النفوس والأموال و تحديد الحريات و ذلك فرع ولاية، للحاكم على المحكوم و لولاها لعدّ التصرف عدواناً و ممّا لا شكّ فيه أنّ الولاية لله المالك الحقيقي للإنسان الخالق له، و المدبر له، فلا يحقّ لأحد الإمرة على العباد إلا بإذن منه سبحانه.

قال سبحانه: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَنْقُصُ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ (٢) وقال سبحانه: ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ

١. النساء: ٨٠.

٢. الأنعام: ٥٧.

الْحَاسِبِينَ ﴿١١﴾ فالحكومة على الناس - سواء أكانت بصورة القضاء وفضّ الخصومة أو بصورة الإمرة - حقّ لله، وغيره يمارسها بإذنه وإلا فيكون من قبيل حكم الطواغيت الذي شجبه القرآن في أكثر من آية .

### السابع: التوحيد في العبادة

والمراد منه حصر العبادة بالله سبحانه وهذا هو الأصل المتفق عليه بين جميع طوائف المسلمين فلا يكون المسلم مسلماً إلا بعد الاعتراف بهذا الأصل، وشعار المسلمين الذي يردّدونه كل يوم هو قوله سبحانه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فعبادة غيره إشراك للغير مع الله في العبادة، موجبة لخروج المسلم عن ربقة الإسلام.

وثمة أمر آخر وهو أنّ الضابطة الكلية - حصر العبادة بالله سبحانه - أمر لا غبار عليه، لكن ثمة أموراً ربما يتصور أنّها من قبيل العبادة لغير الله، وهذا ما ستطرق إليه في الفصل الخامس، وعلى ذلك فالنزاع ليس كبروياً بل صفروي، أي لا نزاع لأحد في أنه لا تجوز عبادة غيره، وإنّا الكلام في أنّ هذا الأمر هل هو عبادة غيره سبحانه أو لا ؟

مثلاً هل إقامة الاحتفالات في الأعياد والمهرجانات الدينية عبادة



لصاحب الذكرى، أو هو تكريم وتبجيل وتعظيم له، فلو كانت عبادة تكون محرمة وشركاً بلا شك، ولو كان تكريماً وتعظيماً له يكون أمراً جائزاً بل مستحباً.

وهناك أمثلة أخرى ستمر عليك في الفصل الخامس، غير أن المهم في المقام هو تفسير العبادة تفسيراً منطقياً وتحديدتها تحديداً دقيقاً ليعلم من خلالها ما هو الداخل تحتها أو الخارج عنها. وهذا هو الذي يتكفل بيانه الفصلان التاليان.<sup>(١)</sup>

---

١. أحدهما يتضمن بيان حقيقة العبادة ومقوماتها و الآخر يتضمن تعريف العبادة، والأول مقدمة للآخر.

## الفصل الثالث

### حقيقة العبادة ومقوماتها

إن مفهوم العبادة من المفاهيم الواضحة كالماء والأرض لكن مع وضوح مفهومها ربما يصعب التعبير عن حقيقتها في قالب الألفاظ.

وهكذا مفهوم العبادة من المفاهيم الواضحة مفهوماً ومصداقاً، ولكن ربما يصعب تحديدها تحديداً منطقياً يكون جامعاً للأفراد ومانعاً للأغيار مع وضوح مصاديقها غالباً.

فخضوع العاشق الولهان للمعشوق، أو الجندي لرئيسه، وشذ الرحال إلى زيارة كبار الشخصيات كلها خضوع وخشوع وليست بعبادة.

والرجوع إلى اللغة لا يسمن ولا يغني من جوع، لأن أصحاب المعاجم لم يكونوا بصدد تحديد مفهوم العبادة حتى يتخذ ما ذكروه مقياساً وتعريفاً جامعاً ومانعاً. فأنهم فسروه بالخضوع والتذلل وما شابهها.

يقول ابن منظور في لسان العرب: أصل العبودية الخضوع

## والتذلل.

ويقول الراجب في المفردات: العبودية: التذلل، والعبادة أبلغ منها لأنها غاية التذلل.

وفي القاموس المحيط: العبادة: الطاعة.

إلى غير ذلك من التعاريف المتقاربة.

و من المعلوم أن هذه تعاريف بالمعنى الأعم، إذ ليس مجرد الخضوع والتذلل ولا غايتها حداً للعبادة، فإن حب العاشق للمعشوق لا يعد عبادة له، كما أن تقبيل المصحف الكريم ليس عبادة للكتاب، وأوضح من ذلك أن سجود الملائكة لآدم، كقوله سبحانه: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ إلا إيليس أبي ﴿<sup>(١)</sup> وسجود النبي يعقوب ﷺ وزوجه وأولاده ليوسف ﷺ، كما في قوله سبحانه: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ <sup>(٢)</sup> لم يكن عبادة للمسجود له، أعني آدم أبا البشر ولا النبي يوسف ﷺ.

وقد بلغ خضوع الصحابة للنبي ﷺ بمكان اتهم كانوا يتبركون بفضل وضوئه وشعر رأسه، والإناء الذي يشرب منه الماء، والمنبر الذي كان يجلس عليه، ومن الواضح أن هذا النوع من التبرك غاية الخضوع منهم للنبي ﷺ ومع ذلك لم يبلغ حدَّ العبادة ولم يصفهم أحد بأنهم

١. الحجر: ٣٠-٣١.

٢. يوسف: ١٠٠.

كانوا يؤثرون النبي ﷺ ويعبدونه كل ذلك يجزنا إلى أن نقوم بتعريفها حتى يعم جميع المصاديق ويمنع عن دخول غيرها.

والطريق الواضح لحل هذه المعضلة هو الوقوف على مقومات العبادة وإمعان النظر في العبادات الصحيحة التي قام بها المسلمون على مر العصور، وفي العبادات والطقوس الباطلة التي كانت تُمارَس من قِبَل الوثنيين في الجاهلية والعصر الحاضر حتى نكشف على الخصوصيات المكنونة في عمل الجميع والتي على ضوءها تطلق عليها عبادة، إذًا فتحليل أعمالهم والوقوف على الميزات الموجودة فيها والخصوصيات الكامنة يوقفنا أولاً على حقيقة العبادة، ويرسم لنا ثانياً تعريفاً جامعاً ومانعاً على نحو يكون مقياساً لتمييز العبادة عن غيرها.

وإليك تحليلها:

لا شك أن الجامع بين جميع أقسام العبادات صحيحها وباطلها هو الخضوع للمعبود سواء أكان مستحقاً له كالله سبحانه أو غير مستحق له كالأصنام والأوثان أو الأجرام السماوية من النجم والقمر والشمس والأرواح والمثل النورية المجردة، فالعبادة في جميع تلك المراحل تتمتع بالخضوع وهو عمل قائم بالجوارح كالرأس واليد وغيرهما، فالعابد يخضع بجَلِّ جوارحه أو بشيء منها أمام المعبود وهذا أمر لاسترة فيه.

ولكن هناك خصوصية أخرى موجودة في الجميع وهو أمر قائم

بالضمير و القلب ولعلّه الأساس لإضفاء العبادة على العمل الجارحي، وهي عبارة عن اعتقاد خاص بالمعبود الذي يكون مبدأً للخضوع الظاهري.

فالواجب علينا بيان تلك الخصوصية الموجودة في جميع الأقسام وإليك التوضيح:

أما الموحدون الذين يعبدون الله تبارك و تعالی، فخضوعهم نابع عن اعتقادهم بأنه خالق للكون والإنسان، والمدبر للعالم الذي بيده كل شيء في الدنيا والآخرة، وليس هناك أي خالق ومدبر ومالك لمصالح العباد ومصائرهم في العاجل والآجل سواه.

أما العاجل فيعتقدون أنّ الخلق والتدبير والاحياء والاماتة و انزال المطر والخصب و الجذب وكل ما يعدّ ظاهرة طبيعية من فعله سبحانه لا من فعل غيره الذي لا يملك أي تأثير في مصير الإنسان.

أما الآجل فيعتقدون أنّ الشفاعة ومغفرة الذنوب وغيرهما من الأمور الأخروية بيده تعالی.

وعلى ضوء ذلك فالعبادة هو الخضوع النابع عن الاعتقاد بخالقيته ومدبريته وكون أزمّة الأمور ومصير الإنسان في الدنيا والآخرة بيده.

هذا حال الموحدین وأما المشركون في عصر الرسالة وقبله وبعده فخضوعهم لمعبوداتهم كان نابعاً عن اعتقاد خاص يصاد ذلك، فاللازم

هو تحصيل ذلك الاعتقاد.

يظهر من بعض الآيات أنّ العرب في العصر الجاهلي كانوا موحدين في الخالقية، قال تعالى: ﴿وَلَيْسَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾<sup>(١)</sup> ولكنهم في الوقت نفسه كانوا مشركين في التدبير الذي نعبر عنه بالربوبية، فكانوا يعتقدون بأرباب، مكان الرب الواحد، ولكلّ رب شأن في عالم الكون.

ويدل على ذلك طائفة من الآيات نذكر بعضها:

١. أنّ الموحد يرى أنّ العزة بيد الله سبحانه ومنطقه، قوله سبحانه: ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾<sup>(٢)</sup>.

ولكن المشرك في عصر الرسالة كان يرى أنّ العزة بيد الأصنام والأوثان كما يحكي عن عقيدته قوله سبحانه: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾<sup>(٣)</sup>.

٢. أنّ الموحد يرى أنّ النصر بيد الله تبارك و تعالى و يردّد على لسانه، قوله سبحانه: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾<sup>(٤)</sup>.

ولكن المشرك في عصر الرسالة كان يعتقد بأنّ النصر بيد الآلهة

١. الزخرف: ٩.

٢. فاطر: ١٠.

٣. مريم: ٨١.

٤. آل عمران: ١٢٦.

والأرباب المزيّفة، قال سبحانه: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

٣. إنّ الموحد يؤمن بأن أمر التدبير بيد الله، قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِّلُ الْغَيْثَ﴾<sup>(٢)</sup> كما أنّ بيده الجذب والخصب قال سبحانه: ﴿وَلَنَبَلِّغُنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾<sup>(٣)</sup>.

ولكن المشرك كان يستمطر بالانواء بل يستمطر بالأصنام.

يقول ابن هشام في سيرته: كان عمرو بن لُحَيٍّ أول من أدخل الوثنية إلى مكة وضواحيها، فقد رأى في مآب من أرض البلقاء من بقاع الشام أناساً يعبدون الأوثان وعندما سأهم عما يفعلون قائلًا: ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدونها؟

قالوا: هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا، فقال لهم: أفلا تعطونني منها صنماً فأسير به إلى أرض العرب فيعبدوه؟

وهكذا استحسّن طريقتهم واصطحب معه إلى مكة صنماً كبيراً يقال له «هبل» ووضع على سطح الكعبة المشرفة ودعا

١. يس: ٧٤.

٢. لقمان: ٣٤.

٣. البقرة: ١٥٥.

الناس إلى عبادته .<sup>(١)</sup>

٤. ثم إن الموحد يرى أن غفران الذنوب والشفاعة بيده سبحانه فليس هناك غافر للذنوب إلا الله سبحانه ولا شفيع إلا بإذنه، يقول سبحانه: ﴿فَاسْتَغْفِرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾<sup>(٢)</sup> وقوله سبحانه: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾<sup>(٣)</sup>. وقال سبحانه: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ﴾<sup>(٤)</sup>.

وأما المشرك فكان يعتقد بأن الشفاعة بيد الآلهة والأرباب المزيفة، والشاهد عليه أن الآيات الماضية نزلت رداً على عقيدة المشركين حيث كانوا يعتقدون بأنهم مالكون مقام الشفاعة بتفويض من الله سبحانه ولأجل ذلك يؤكد على نفي تلك العقيدة في آيات أخرى، ويقول: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً﴾<sup>(٥)</sup> وقال: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾<sup>(٦)</sup> وقال: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾<sup>(٧)</sup>.

١. انظر السيرة النبوية: ٧٦-٧٧.

٢. آل عمران: ١٣٥.

٣. الزمر: ٤٤.

٤. الزخرف: ٨٦.

٥. مريم: ٨٧.

٦. سبأ: ٢٣.

٧. الزخرف: ٨٦.



كما يرى أنّ مغفرة الذنوب بيد الآلهة والشاهد على ذلك (وصفه سبحانه) نفسه بأنه «غافر الذنب»<sup>(١)</sup>.

٥. إنّ الموحّد يرى مصيره عاجلاً و آجلاً بيده سبحانه: وهذا هو إبراهيم الخليل رائد التوحيد يعلن عقيدته أمام الملأ من المشركين، يقول سبحانه حاكياً عنه: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ \* وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ \* وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ \* وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾<sup>(٢)</sup>.

ولكن المشرك يرى كلّ ذلك أو أكثره بيد آلهته وأربابه، كما يعرب عنه قوله سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾<sup>(٣)</sup> ويقول تعالى حاكياً عن لسان المشركين يوم الحشر عند ندمهم عن عبادة الآلهة، ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ \* إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾<sup>(٤)</sup>.

٦. إنّ الموحّد يرى أمر التشريع والتحليل والتحريم بيده سبحانه، ويقول: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾<sup>(٥)</sup>.

ولكن المشرك يرى أنّ التشريع بيد الأجبّار والرهبان، قال

١. راجع غافر: ٣.

٢. الشعراء: ٧٨-٨١.

٣. البقرة: ١٦٥.

٤. الشعراء: ٩٧-٩٨.

٥. يوسف: ٤٠.

سبحانه: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾<sup>(١)</sup> فقد كانوا على اعتقاد أنّ الأحرار والرهبان يملكون مقام التشريع فلهم أن يجلوا الحرام أو يجرموا الحلال بأخذ شيء من حطام الدنيا.

إلى غير ذلك مما يبين عقيدة المشركين في العصر الجاهلي ويكشف عن أنّ خضوع المشركين لم يكن خضوعاً مجرداً نابعاً عن الحب المجرد بل ناجماً عن عقيدة خاصة في الآلهة والأرباب، والاعتقاد بأنّ أمر التدبير بعضه أو كله بيدهم وأنّ مصيرهم موكول إليهم.

نعم لم تكن عقيدتهم في ربوبيتهم على درجة واحدة، بل كانت تختلف حسب اختلاف الظروف والشرائط.

فطائفة منهم تعتقد بسعة ربوبية الأرباب والآلهة كما كان عليه المشركون في عصر إبراهيم حيث كانوا يعتقدون بربوبية النجم والقمر والشمس للموجودات الأرضية كما حكاه سبحانه عنهم في عدّة من الآيات، قال سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ \* فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ...﴾<sup>(٢)</sup>.

وطائفة أخرى تعتقد بضيق ربوبية تلك الآلهة وتخصها ببعض ما

١. التوبة: ٣١.

٢. الأنعام: ٧٥-٨٠.

يمتُّ إلى الإنسان بصلة كاختصاصهم بحق الشفاعة والمغفرة والعزة  
والنصرة في الحروب إلى غير ذلك، و من أراد التفصيل فليرجع إلى كتب  
الملل والنحل.<sup>(١)</sup>

والذي كان يجمع المشركين في معسكر واحد هو اعتقادهم  
بهاكية الآلهة شيئاً من الربوبية وإدارة الكون وحياة الإنسان.  
ونلفت نظر القارئ إلى بعض النماذج مما أثر عن المشركين في  
مجال عقيدتهم.

قال زيد بن عمرو بن نوفل الذي ترك عبادة الأصنام قبل أن  
يبعث النبي ﷺ حيث يحكي عن عقيدته في الجاهلية ويقول:

أرب واحد أم ألف رب	أدين إذا تقسّمت الأمور
عزلت اللات والعزى جميعاً	كذلك يفصل الجلد الصبور
للا عزى أدين ولا ابتيها	ولا صنم بني عمرو أزور
ويقول أيضاً:	

إلى الملك الأعلى الذي ليس فوقه

إله ولا رب يكون مدايناً<sup>(٢)</sup>

١. الشهرستان: الملل والنحل: ٢/٢٤٤.

٢. الألويسي: بلوغ الأرب: ٢/٢٤٩.

هذه الأشعار وسائر الكلمات المروية قبل مبعث النبي ﷺ تثبت  
 أمراً واحداً، وهو أنّ آلهتهم كانت تتمتع حسب عقيدتهم بقوة غيبية  
 مالكة لها مؤثرة في الكون ومصير الإنسان، وأن هؤلاء آلهة وأرباب والله  
 سبحانه إله الآلهة وربّ الأرباب.

ويمكن أن نتطرق إلى المواقف التي اتخذوها أمام أصنامهم  
 وأوثانهم من خلال استعراض الآيات التي تندد بالمشركين وتشجب  
 عملهم.

١. ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ﴾ (١)

٢. ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ رَعِمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ  
 عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ (٢)

٣. ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ (٣)

٤. ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ (٤)

٥. ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ  
 إِنَّ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ (٥)

١. الأعراف: ١٩٤.

٢. الإسراء: ٥٦.

٣. يونس: ١٠٦.

٤. فاطر: ١٤.

٥. الملك: ٢٠.

٦. ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنْهَا يُضْحِكُونَ﴾. <sup>(١)</sup> إلى غير ذلك من الآيات المنذرة بعمل المشركين حيث تجد أنه سبحانه يرشدهم إلى الحقيقة الناصعة ويبطل عقيدتهم المزيفة بالحجج التالية:

أ. أنهم ﴿عباد أمثالكم﴾ فلا ربوبية لهم كلاً أو بعضاً.

ب. ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ﴾ فلا ربوبية لهم حتى يكشفوا الضر عنكم.

ج. لا يتفعلون ولا يضرون، ولا يسمعون فكيف تعبدونهم؟  
كل ذلك يكشف عن أن المخاطبين كانوا على اعتقاد راسخ بأن  
للآله قدرة غيبية فوق الإنسان وأن زمام كشف الضر بأيديهم فينفعلون  
ويضرون.

إلى هنا تبين أن حقيقة العبادة قائمة بأمرين:

الأول: يرجع إلى جوارح الإنسان المشعرة بالتعظيم والخضوع.

الثاني: يرجع إلى عقيدة الخاضع في حق المخضوع له بنحو من  
الأنحاء من كونه خالفاً أو رباً أو من بيده مصير الإنسان كلاً أو جزءاً  
فلا تتحقق مفهوم العبادة إلا بتحققها.

نعم يبقى هنا سؤال وهو أن العرب في العصر الجاهلي لو كانوا

معتقدين بربوبية الآلهة، فلماذا يحكي عنهم القرآن بأن عبادتهم كانت لأجل التقرب بعبادتهم إلى الله فقط لا غير، قال سبحانه: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ (١).

حيث يحكي عنهم سبحانه قولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ أي يقولون: نحن لا نعدُّهم مؤثرين في حياتنا ومصيرنا وإنما نعبدهم لتتقرب بعبادتهم إلى الله.

والجواب: أنه لا شك حسب ما مر من الآيات أنهم كانوا يتخذونهم آلهة وأرباباً وكانوا يستمطرون ويعتزون بهم إلى غير ذلك من صفات الآلهة، ومع ذلك كيف يمكن أن تُحصر عبادتهم في طلب التقرب إلى الله، وهذا يدلنا إلى القول بأنهم كانوا يقولون في ألسنتهم ما ليس في قلوبهم ولذلك نرى أنه سبحانه يقول في ذيل الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ مشيراً إلى أنهم كاذبين في ذلك المدعى وإنما يعبدونهم لغايات دنيوية، وهو اكتساب العزة والنصرة والخصب والنعمة والشفاء والشفاعة.

وحيث إنه طال الكلام في هذا الفصل الذي تناولنا فيه بيان مقومات العبادة نحيل تعريفها إلى الفصل اللاحق.



## الفصل الرابع

### تعريف العبادة

إذا وقفت على مقومات العبادة، فيكون من السهل تعريف العبادة تعريفاً منطقياً جامعاً للأفراد ومانعاً للأغيار بأحد التعاريف التالية:

#### التعريف الأول

العبادة هي الخضوع عن اعتقاد بألوهية المخضوع له، فمالم يكن القول والعمل ناشئين من الاعتقاد بالألوهية، لا يكون الخضوع والتعظيم والتكريم عبادة.

والذي يجب أن نلفت نظر القارئ إليه، هو أنّ المراد من الألوهية ليست المعبودية كما هو الرائج في الألسن، بل المراد منها الاعتقاد بكونه إله العالم وخالقه ومدبره وأنّ أزمة الأمور كلّها أو بعضها بيده، فهذا هو المراد من الإله، والألوهية، فلفظ الإله كلي و(الله) لفظ الجلالة علم، فليس بينهما فرق إلا بالكلية والجزئية.



والذي يدل على ذلك (الخضوع النابع عن الاعتقاد بالألوهية) أن بعض الآيات تأمر بعبادة الله وتنهى عن عبادة غيره مدلاً بأنه لا إله غيره، يقول: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾<sup>(١)</sup>.

ومعنى ذلك أن الذي يستحق العبادة من كان إلهاً وليس هو إلا الله، عندئذ كيف تعبدون ما ليس بآله حقيقة وإنما تدعون له الألوهية؟ وكيف تنبذون عبادة الله وهو الإله الذي يجب أن يعبد دون سواه؟ وقد وردت هذه الآية بنصها أو مضمونها في كثير من الآيات.<sup>(٢)</sup>

فهذه التعابير تفيد أن العبادة هي ذلك الخضوع والتذلل النابعين من الاعتقاد بالوهية المعبود، إذ نلاحظ - بجلاء - كيف استنكر القرآن على المشركين عبادة غير الله بأن هذه المعبودات ليست آلهة وأن العبادة من شؤون الألوهية. وحيث إن هذا الوصف لا يوجد إلا في الله سبحانه لذلك يجب عبادته دون سواه.

### التعريف الثاني

العبادة هي الخضوع أمام من يعتقد أنه رب يملك شأناً من شؤون وجوده وحياته وشؤونه في آجله وعاجله.

سواء كان أمراً مادياً كالعزة والنصر، أم معنوياً كمغفرة الذنوب.

١. الأعراف: ٥٩.

٢. وللقارئ الكريم أن يراجع في ذلك الآيات التالية: الأعراف: ٦٥، ٧٣، ٨٥؛ هود: ٥٠،

٦١، ٨٤؛ الأنبياء: ٢٥؛ المؤمنون: ٢٣، ٣٢؛ طه: ١٤.

والمقصود من الرب، هو المالك لشؤون الشيء، المتكفل لتدبيره وتربيته، ولذلك تكون العبودية في مقابل الربوبية.

ويبدل على ذلك طائفة من الآيات التي تعلق الأمر بحصر العبادة في الله وحده بأنه الرب لا غير، وإليك بعض هذه الآيات:

﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾<sup>(١)</sup>.

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾<sup>(٢)</sup>.

﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾<sup>(٣)</sup>.

وقد ورد مضمون هذه الآيات في آيات أخرى هي: يونس: ٣؛

الحجر: ٩٩؛ مريم: ٣٦، ٦٥؛ الزخرف: ٦٤.

وعلى كل حال فإنّ أوضح دليل على هذا التفسير للفظ العبادة

هو الآيات التي سبق ذكرها.

### التعريف الثالث

العبادة هي الخضوع أمام من نعتقد أنه إله العالم، أو من فوض إليه أعماله كالخلق والرزق والإحياء والإماتة التي تعد من الأفعال الكونية أو التقنين والتشريع وحق الشفاعة والمغفرة التي تعد من

١. المائدة: ٧٢.

٢. الأنبياء: ٩٢.

٣. آل عمران: ٥١.

## الأفعال التشريعية.

إنّ الموحّد يعبد الله سبحانه بما أنّه قائم بهذه الأفعال، من دون أن يفوّض شيئاً منها إلى مخلوقاته، ولكنّ المشركين مع اعتقادهم بأنّ آلهتهم وأربابهم مخلوقون لله تبارك و تعالّى، لكن كانوا على اعتقاد أنّه فوّض إلى الآلهة أمور التكوين والتشريع كلّها أو بعضها، فلذلك كانوا يستمطرون بالأنواء والأصنام ويطلبون الشفاعة منهم بتصور أنّهم ما لكون لحقّ الشفاعة، ويطلبون منهم النصرة والعزة في الحرب بزعم أنّ الأمر بيدهم وأنّه فوّض إليهم.

وعلى ضوء هذه التعاريف الثلاثة يظهر الفرق الجوهرى بين التوحيد في العبادة والشرك فيها، فكلّ خضوع نابع عن اعتقاد خاصّ بإلهية المخضوع له وربوبيته أو تفويض الأمر إليه فهو عبادة للمخضوع له سواء كان ذلك الاعتقاد الخاصّ في حقّ المعبود حقاً - كما في الله سبحانه - أو باطلاً كما في حقّ الأصنام. وعلى كلّ تقدير فالخضوع الناجم عن هذا النوع من الاعتقاد، عبادة للمخضوع له.

وأما لو كان الخضوع مجرداً عن هذه العقيدة فهو تعظيم وتكريم، وليس بعبادة، ولا يكون الخاضع مشركاً، ولا عمله موصوفاً بالشرك، غاية الأمر ربما يكون حلالاً كما في الخضوع أمام الأنبياء والأولياء ومن وجب له حقّ بالتعليم والتربية، وربما يكون حراماً كالسجود أمام النبي ﷺ والوليّ ﷺ وغيرهما لا لأنّه عبادة للمسجود له، بل لأنّه لا يجوز السجود لغيره سبحانه وإنّ السجود خضوع لا يليق بغيره.

وبمثل هذا البيان تتميز العبادة عن التعظيم، فتقبل المصحف  
وضرائح الأنبياء وما يمت إليهم بصلة إذا كان فارغاً عن اعتقاد  
الألوهية والربوبية والتفويض فهو ليس عبادة للمخضوع له.

إذا عرفت تلك الضوابط فلنتناول بالبحث الموضوعات الخاصة  
التي ربما يتصور أنها شرك وعبادة لغير الله أو أنها بدعة دخلت في الدين  
أو حرام كسائر المحرمات، ويأتي كل ذلك في ضمن الفصل الآتي.



## الفصل الخامس

### تطبيقات

#### على ضوء تعريف العبادة

ينطوي هذا الفصل على مسائل صارت ذريعة للاختلاف والنشئت، وهي لا تمس العقيدة بصلة، وإنّما هي مسائل فقهية تستنبط أحكامها من الكتاب والسنة وهذه المسائل هي كالتالي:

١. زيارة القبور.
٢. شد الرحال إلى زيارة قبر النبي ﷺ.
٣. البناء على القبور.
٤. بناء المساجد على القبور والصلاة فيها.
٥. التوسل بالأنبياء والأولياء والصالحين وأقسامه.
٦. انتفاع الموتى بأعمال الأحياء والنذر لهم.
٧. التبرك بآثار الأنبياء والصالحين.
٨. الاحتفال بميلاد النبي ﷺ.

٩. البكاء على الميت.
  ١٠. الحلف على الله بحق الأولياء.
  ١١. الحلف بغير الله سبحانه.
  ١٢. تسمية المواليد باضافة العبد إلى غير الله سبحانه.
- وإليك البحث فيها واحدة تلو الأخرى:



## زيارة القبور<sup>(١)</sup>

إنَّ زيارة القبور تنطوي على آثار أخلاقية وتربوية هامة، لأنَّ مشاهدة المقابر التي تضمُّ في طياتها مجموعة كبيرة من رفاة الذين عاشوا في هذه الحياة، ثمَّ انتقلوا إلى الآخرة، تؤدي إلى الحد من الطمع والحرص على الدنيا، وربما يُغيِّر سلوك الإنسان فيترك الظلم والمنكر ويتوجه إلى الله والآخرة.

لذا يقول الرسول الأعظم ﷺ: «زوروا القبور فإنَّها تذكركم بالآخرة»<sup>(٢)</sup>

نعم يستفاد من بعض الأحاديث أنَّ النبي ﷺ نهى يوماً عن زيارة القبور ثمَّ رخصها، ولعلَّ النهي كان لملاك آخر، وهو أنَّ أكثر الأموات - يومذاك - كانوا من المشركين، فنهى النبي ﷺ عن زيارتهم،

١. أنَّ زيارة القبور من المسائل الفرعية الفقهية، ولا تمتُّ إلى العقيدة الإسلامية بصله، ولا يتهم القائل بجوازها بالشرك، وهذه المسألة شأن سائر المسائل يرجع فيها إلى الكتاب والسنة حتى يعلم جوازها أو عدم جوازها.

٢. شفاء السقام: ١٠٧.



ولما كثر المؤمنون بينهم رخصها بإذن الله عز وجل، وقال: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فانها تزهد في الدنيا وتذكر في الآخرة»<sup>(١)</sup>

وقالت عائشة: ان رسول الله رخص في زيارة القبور، وقالت: ان النبي ﷺ قال: امرني ربي ان آتي البقيع وأستغفر لهم. قلت: كيف أقول يا رسول الله ﷺ؟

قال: قولي: السلام على أهل الديار من المؤمنين والمؤمنات يرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، انا ان شاء الله بكم لاحقون.<sup>(٢)</sup>

وجاء في الصحاح والمسانيد صور الزيارات التي زار بها النبي ﷺ البقيع.

قال مؤلف كتاب «الفقه على المذاهب الأربعة»: زيارة القبور مندوبة للاتعاظ وتذكر الآخرة وتتأكد يوم الجمعة، وينبغي للزائر الاشتغال بالدعاء والتضرع، والاعتبار بالموتى، وقراءة القرآن للميت فان ذلك ينفع الميت على الأصح، وبما ورد أن يقول الزائر عند رؤية القبور: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا ان شاء الله بكم لاحقون» ولا فرق في الزيارة بين كون المقابر قريبة أو بعيدة<sup>(٣)</sup> بل يندب السفر لزيارة الموتى خصوصاً مقابر الصالحين.

١. سنن ابن ماجه: ١/١١٧، باب ما جاء في زيارة القبور.

٢. لاحظ صحيح مسلم: ٢/٦٤، باب ما يقال عند دخول القبور.

٣. إلا الحنابلة فقالوا إذا كانت القبور بعيدة فزيارتها مباحة لا مندوبة.

هذه كلمات فقهاء المذاهب الأربعة حول زيارة القبور.<sup>(١)</sup>

### زيارة قبر النبي ﷺ

هذا كله حول زيارة قبور المسلمين، وأما زيارة قبر النبي ﷺ وأئمة الإسلام والشهداء والصالحين فلا شك أن لزيارتهم نتائج بناءة نشير إليها، كما نشير إلى الأحاديث الواردة حول زيارة قبورهم ليكون البحث مرفقاً بالتحليل وجامعاً للدليل.

أما التحليل: أن زيارة مراقد هذه الشخصيات هو نوع من الشكر والتقدير على تضحياتهم وإعلام للجيل الحاضر بأن هذا هو جزاء الذين يسلكون طريق الحق والهدى، والفضيلة والدفاع عن المبدأ والعقيدة، وهذا لا يدفعنا إلى زيارة قبورهم فحسب، بل إلى إبقاء ذكرياتهم حية ساخنة، والمحافظة على آثارهم وإقامة المهرجانات، في ذكرى مواليدهم، وعقد المجالس وإلقاء الخطب المفيدة في أيام التحاقهم بالرفيق الأعلى، وهذا شيء يدركه كل ذي مسكة.

ولأجل ذلك ترى أن الأمم الحية يتسابقون في زيارة مدفن رؤسائهم وشخصياتهم الذين ضحوا بأنفسهم وأموالهم في سبيل نجات الشعب، وإنقاذه من مخالب المستعمرين والظالمين، ويقيمون المجالس لآحياء معالمهم، دون أن يخطر ببال أحد أن هذه الأمور عبادة

لهم، فأين التعظيم للشخصيات من عبادتهم؛ فإن التعظيم تقدير لجهودهم، والعبادة تأليههم واتخاذهم أرباباً. أفهل هناك من يخلط بين الأمرين منا أو من غيرنا؟! كلا، لا، شريطة الإمعان في مقومات العبادة وتعريفها الماضيتين في الفصلين السابقين.

إذا وقفت على الآثار البناءة لزيارة مطلق القبور وزيارة قبور الأولياء والصالحين، نذكر خصوص ما ورد من الروايات التي جاء فيها الحث على زيارة قبر النبي الأعظم ﷺ.

أخرج أئمة المذاهب الأربعة وحفاظها في الصحاح والمسانيد أحاديث جمّة في زيارة قبر النبي ﷺ نذكر شطراً منها:

١. عن عبد الله بن عمر مرفوعاً: من زار قبري وجبت له شفاعتي.

٢. عن عبد الله بن عمر مرفوعاً: من جاءني زائراً لا تحمله إلاّ زيارتي كان حقاً عليّ أن أكون له شفيعاً يوم القيامة.

٣. عن عبد الله بن عمر مرفوعاً: من حجّ فزار قبري بعد وفاتي كمن زارني في حياتي.

٤. عن عبد الله بن عمر مرفوعاً: من حجّ البيت ولم يزرني فقد جفاني.

٥. عن عمر مرفوعاً: من زار قبري أو من زارني كنت له شفيعاً أو شهيداً.

٦. عن حاتم بن أبي بلتعة مرفوعاً: من زارني بعد موتي فكأنما زارني في حياتي.

٧. عن أبي هريرة مرفوعاً: من زارني بعد موتي فكأنما زارني وأنا حي، ومن زارني كنت له شهيداً أو شفيحاً يوم القيامة.

٨. عن أنس بن مالك مرفوعاً: من زارني في المدينة محتسباً كنت له شفيحاً.

٩. عن أنس بن مالك: من زارني ميتاً فكأنما زارني حياً، ومن زار قبري وجبت له شفاعتي يوم القيامة، وما من أحد من أمتي له سعة ثم لم يزرنني فليس له عذر.

١٠. عن ابن عباس مرفوعاً: من زارني في مماتي كمن زارني في حياتي، ومن زارني حتى يتتهي إلى قبري كنت له يوم القيامة شهيداً، أو قال شفيحاً.

فهذه أحاديث عشرة أخرجها الحفاظ من المحدثين، وقد جمع أسانيدھا وطرقھا وصححھا تقي الدين السبكي (المتوفى سنة ٧٥٦هـ) في كتاب شفاء السقام في زيارة خير الأنام فمن أراد التفصيل فليرجع إليه.<sup>(١)</sup>

١. شفاء السقام في زيارة خير الأنام، الباب الأول في الأحاديث الواردة في زيارته ولاحظ أيضاً وفاء الوفاء بأحوال دار المصطفى: ٤/١٣٣٦.

ونظم الشيخ شعيب الحريفيش في «الروض الفائق» هذا المعنى  
في قصيدة مطلعها:

من زار قبر محمد	نال الشفاعة في غد
بالله كرّر ذكره	وحديثه يا منشيدي
واجعل صلواتك دائماً	جهرأ عليه تهتيدي
فهو الرسول المصطفى	ذو الجود والكفّ الندي
وهو المشفق في الوري	من هول يوم الموعد
والحوض مخصوص به	في الحشر عذب المورد
صلى عليه ربنا	ما لاح نجم الفرقد <sup>(١)</sup>

## شد الرحال إلى زيارة قبر النبي ﷺ

كان الكلام في استحباب زيارة النبي ﷺ للحاضر في المدينة،  
وأما استحباب السفر للغائب عنها فيدل عليه أمور:

الأول: ما ورد في الأحاديث من الحث على زيارة النبي ﷺ، فإنها  
بين صريح في الغائب أو مطلق بعم المقيم والمسافر والحاضر والغائب.  
فمن القسم الأول ما رواه عبد الله بن عمر، عن النبي ﷺ أنه  
قال:

من جاءني زائراً لا تحمله إلا زيارتي كان حقاً علي أن أكون له  
شفيعاً يوم القيامة.  
فهذا صريح في الغائب وغيره.

الثاني: سيرة النبي ﷺ فإنه كان يشد الرحال إلى زيارة قبور شهداء  
أحد.

أخرج أبو داود عن ربيعة - يعني ابن الهدير - عن طلحة بن  
عبيد الله، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ يريد قبور الشهداء حتى

إذا أشرفنا على حرّة واقم<sup>(١)</sup> فلما تدلّينا منها وإذا بقبور بمحنية<sup>(٢)</sup>، قال:  
قلنا يا رسول الله: أقبور اخواننا هذه.

قال: قبور أصحابنا، فلما جئنا قبور الشهداء، قال: هذه قبور  
إخواننا.<sup>(٣)</sup>

الثالث: إطباق السلف والخلف على شدّ الرحال إلى زيارة  
النبي ﷺ، لأنّ الناس لم يزالوا في كلّ عام إذا قضوا الحج يتوجهون إلى  
زيارته و منهم من يفعل ذلك قبل الحج.

قال السبكي : هكذا شاهدناه وشاهده من قبلنا وحكاه العلماء  
عن الأعصار القديمة... وكلّهم يقصدون ذلك ويعرجون إليه وإن لم  
يكن طريقهم، ويقطعون فيه مسافة بعيدة وينفقون فيه الأموال،  
ويبدلون فيه المهج، معتقدين أنّ ذلك قربة وطاعة، وإطباق هذا الجمع  
العظيم من مشارق الأرض ومغاربها على مرّ السنين وفيهم العلماء  
والصلحاء وغيرهم يستحيل أن يكون خطأ وكلّهم يفعلون ذلك على  
وجه التقرب به إلى الله عزّ وجلّ، ومن تأخّر عنه من المسلمين فإنّما  
يتأخّر بعجز أو تعويق المقادير مع تأسفه عليه وودّه لو تيسر له، و من  
ادّعى أنّ هذا الجمع العظيم مجمعون على خطأ فهو المخطئ.

١. الحرّة: الأرض ذات الحجارة، واقم: أطم من اطام المدينة وإليه تنسب الحرّة.

٢. المحنية: انعطاف الوادي.

٣. سنن أبي داود: ٢/٢١٨ برقم ٢٠٤٣، آخر كتاب الحج.

وما ربما يقال من أن سفرهم إلى المدينة لأجل قصد عبادة أخرى وهو الصلاة في المسجد، باطل جداً، فإن المنازعة فيما يقصده الناس مكابرة في أمر البديهة، فمن عرف الناس، عرف أنهم يقصدون بسفرهم الزيارة من حين يعرجون إلى طريق المدينة، ولا يخطر غير الزيارة من القربات إلاّ ببال قليل منهم، ولهذا قل القاصدون إلى البيت المقدس مع تيسر إتيانه، وإن كان في الصلاة فيه من الفضل ما قد عرف، فالمقصود الأعظم في المدينة، الزيارة كما أنّ المقصود الأعظم في مكة، الحج أو العمرة وهو المقصود، وصاحب هذا السؤال إن شك في نفسه فليسأل كل من توجه إلى المدينة ما قصد بذلك؟<sup>(١)</sup>

الرابع: أنه إذا كانت الزيارة قربة وأمرأ مستحجاً على الوجه العام أو الخاص، فالسفر وسيلة القربة، والوسائل معتبرة بالمقاصد فيجوز قطعاً.

الخامس: ما نقله المؤرخون عن بعض الصحابة والتابعين في هذا المجال.

١. قال ابن عساكر: إن بلالاً رأى في منامه النبي ﷺ وهو يقول له: ما هذه الجفوة يا بلال، أما أن لك أن تزورني يا بلال؟ فانتبه حزيناً، وجلاً خائفاً، فركب راحلته وقصد المدينة فأتى قبر النبي ﷺ، فجعل

١. شفاء السقام في زيارة خير الأنام لثقي الدين السبكي: ٨٥-٨٦، ط بولاق مصر، وانظر الطبعة الرابعة: ٢١١-٢١٢ بتلخيص.



يبكي عنده ويمرغ وجهه عليه، وأقبل الحسن والحسين - رضي الله عنهما - فجعل يضمّهما ويقبلهما فقالا له يا بلال: نشتهي نسمع أذانك الذي كنت تؤذن به لرسول الله ﷺ، في السحر ففعل، فعلا سطح المسجد، فوقف موقفه الذي كان يقف فيه، فلما أن قال: «الله أكبر - الله أكبر» ارتجت المدينة، فلما أن قال: «أشهد أن لا إله إلا الله» ازدادت رجتها، فلما أن قال: «أشهد أن محمداً رسول الله» خرجت العواتق من خدورهن فقالوا: أبعث رسول الله ﷺ؟! فما رثي يوم أكثر باكياً ولا باكية بعد رسول الله من ذلك اليوم. (١)

٢. إن عمر بن عبد العزيز كان يبعث بالرسول قاصداً من الشام إلى المدينة ليقري النبي السلام ثم يرجع. (٢)

قال السبكي: فسفر بلال في زمن صدر الصحابة، ورسول عمر بن عبد العزيز في زمن صدر التابعين من الشام إلى المدينة، لم يكن إلا للزيارة والسلام على النبي ولم يكن الباعث على السفر غير ذلك لا من أمر الدنيا ولا من أمر الدين، لا من قصد المسجد ولا من غيره. (٣)

٣. إن عمر لما صالح أهل بيت المقدس وقدم عليه كعب الأخبار وأسلم وفرح عمر بإسلامه، قال عمر له: هل لك أن تسير معي

١. تاريخ ابن عساکر: ٧/ ١٣٧ في ترجمة إبراهيم بن محمد، برقم ٤٩٣.

٢. شفاء السقام، ص ١٤٢. أخرجه البيهقي في شعب الإيمان كما نقله في الصارم المتكفي: ٢٤٦، لاحظ تعليقه شفاء السقام.

٣. شفاء السقام: ١٤٣، ط الرابعة.

إلى المدينة وتزور قبر النبي وتمتع بزيارته؟ فقال لعمر: أنا أفعل ذلك، ولما قدم عمر المدينة أول ما بدأ بالمسجد سلم على رسول الله. (١)

٤. ذكر ابن عساكر في تاريخه، وابن الجوزي في «مثير الغرام الساكن»، بأسانيدهم إلى محمد بن حرب الهلالي قال: دخلت المدينة، فأتيت قبر النبي ﷺ وزرته وسلمت بحذائه، فجاءه أعرابي فزاره، ثم قال: يا خير الرسل إن الله أنزل عليك كتاباً صادقاً، قال فيه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾. (٢)

وإني جئتك مستغفراً ربك ذنوبي، مستشفعاً بك إلى الله ثم بكى وأنشأ يقول:

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه      فطاب من طيهن القاع والاكم  
نفسى الفداء لقبر أنت ساكنه      فيه العفاف وفيه الجود والكرم  
وقد ذيله أبو الطيب أحمد بن عبد العزيز بأبيات وقال:

وفيه شمس التقى والدين قد غربت  
من بعد ما أشرقت من نورها الظلم  
حاشا لوجهك أن يبلى وقد هديت  
في الشرق والغرب من أنواره الأمم (٣)

٢. النساء: ٦٤.

١. فتوح الشام: ١/١٤٨، باب فتح القدس.

٣. شفاء السقام: ١٥١-١٥٢.

## سؤال و اجابة

وثمة سؤال وهو أنه إذا كان شدّ الرحال إلى زيارة القبور وبالأخص زيارة قبر النبي ﷺ جائزاً، فما معنى هذا الحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه، وهو لا تشدّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى؟

والجواب أولاً: أنّ هذا الحديث وإن أخرجه مسلم، لكنّه معارض بفعل النبي ﷺ حيث إنّه كان يشدّ الرحال إلى مساجد غير هذه الثلاثة.

فقد أخرج الشيخان في صحيحهما أنّ النبي ﷺ كان يأتي مسجد قبا ركباً وماشياً فيصلي فيه. <sup>(١)</sup>

فكيف يجتمع هذا الحديث مع حديث النهي الذي لسانه أب عن التخصيص، وهذا يدل على أنّ الحديث الأول إما غير صحيح وعلى فرض صحته نقل محرّفاً.

والدليل على التحريف أنّه نقل بوجه آخر أيضاً، وهو إنّها يسافر إلى ثلاثة مساجد: مسجد الكعبة، ومسجدي، ومسجد إيلياء.

وأيضاً بصورة ثالثة تشدّ الرحال إلى ثلاثة مساجد. <sup>(٢)</sup>

١. صحيح مسلم: ٤/١٢٧، صحيح البخاري: ٢/١٧٦.

٢. أورد مسلم هذه الأحاديث في صحيحه: ٤: ١٢٦، باب لا تشدّ الرحال من كتاب الحج وكذلك النسائي في سننه المطبوع مع شرح السيوطي: ٢/٣٧-٣٨، وقد ذكر السبكي صوراً أخرى للحديث هي أضعف دلالة على مقصود المستدل لاحظ شفاء السقام: ٩٨.

فعلى هاتين الصورتين ليس هناك نهي عن شدّ الرحال إلى غير الثلاثة خصوصاً الصورة الثالثة، وأقصى ما فيها الدعوة إلى السفر إلى هذه الثلاثة.

وثانياً: نفترض أنّ الصحيح هو الصورة الأولى لكن المستثنى منه بقريته المستثنى محذوف وهو لفظ المسجد، فيكون معناه لا تشدّ الرحال إلى مسجد من المساجد إلا إلى هذه المساجد الثلاثة، فلو دلّ فإنّها يدل على النهي على شدّ الرحال إلى مسجد سوى المساجد الثلاثة، وأما السفر إلى الأماكن الأخرى فالحديث ساكت عنه غير متعرض لشيء من أحكامه، فإنّ النهي والإثبات يتوجهان إلى السفر إلى المسجد لا إلى الأمكنة الأخرى، كزيارة النبي ومشاهد الشهداء ومراقد الأولياء.

وثالثاً: أنّ الحديث لا يدل - حتى - على حرمة السفر إلى مسجد غير هذه الثلاثة، وإنّما هو إرشاد إلى عدم الجدوى في السفر إلى غيرها، وذلك كما قاله الإمام الغزالي: لأنّ سائر المساجد متماثلة في الفضيلة بعد هذه المساجد فلا وجه لشدّ الرحال إلى غيرها وإنّما يشدّ الرحال إذا كان هناك تفاوت في الفضيلة.<sup>(١)</sup>

وأما شدّ الرحال إلى زيارة أئمة أهل البيت عليهم السلام أو الشهداء فيعلم ذلك ممّا قد أوردناه من الأحاديث، فإذا خرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم من المدينة لزيارة قبور الشهداء فأئمة أهل البيت أئمة الشهداء تجوز

زيارتهم بطريق أولى، أنّ الإمام أمير المؤمنين من أفضل الشهداء،  
والحسين بن علي أبو الشهداء. فسلام الله عليهم يوم ولدوا ويوم  
استشهدوا ويوم يبعثون أحياء.

وعلى كلّ حال فشذّ الرحال، مسألة فقهية لا صلة لها بالمسائل  
العقائدية ولا بالشرك ولكلّ مجتهد دليله.



## البناء على القبور

المراد من القبور في العنوان هو قبور الأنبياء والشهداء والأئمة الأولياء الذين لهم مكانة عالية في قلوب المؤمنين، فهل هو أمر جائز أو لا؟

وهذه المسألة كالمسألتين السابقتين لا تمت إلى العقيدة الإسلامية بصلة حتى تكون ملاكاً للتوحيد والشرك، وإنما هي من المسائل الفقهية التي يدور أمرها بين الإباحة والكرهية والاستحباب وغيرها.

ولا يصح لمسلم واع أن يتخذ تلك المسألة ذريعة للشرك والتكفير، فكم من مسائل فقهية اختلفت فيها كلمة الفقهاء، ومن حسن الحظ لم يختلف في هذه المسألة فقهاء الأئمة الأربعة ولا فقهاء المذهب الإمامي ودليلهم على جواز البناء على قبور تلك الشخصيات عبارة عن سيرة المسلمين منذ رحيل النبي ﷺ إلى يومنا هذا.

أ. وارى المسلمون جسد النبي ﷺ في بيته المسقف وحرصوا على بذل المزيد من العناية بحجرته الشريفة بشتى الأساليب، وقد جاء

ذكرها في الكتب التي ألفت في تاريخ المدينة لا سيما كتاب وفاء الوفاء للعلامة السمهودي<sup>(١)</sup>.

وشيد البناء الموجود عام ١٢٧٠هـ وهو بحمد الله قائم لم يمسه السوء، وسوف يبقى بفضل الله تبارك وتعالى محفوظاً مصوناً عن الاندثار، فلو كان البناء على القبور أمراً حراماً لدفنه المسلمون في مكان واسع لا سقف فيه.

ب. أنّ البناء على القبور كانت سيرة سائدة بين المسلمين من عصر الصحابة إلى يومنا هذا، وهذه هي كتب الرّحلات تذكر لنا وصف القبور الموجودة في المدينة التي كانت عليها قباب وعلى قبورهم صخرة فيها اسمائهم ونحن نذكر من ذلك نزراً يسيراً:

١. يقول المسعودي (المتوفى ٤٤٥هـ) حول المشاهد والقباب في البقيع: وعلى قبورهم في هذا الموضع من البقيع، رخامة مكتوب عليها بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله مبيد الأمم ومحيي الرمم وهذا قبر فاطمة بنت رسول الله ﷺ سيدة نساء العالمين، وقبر الحسن بن علي بن أبي طالب، وعلي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، و محمد بن علي، و جعفر بن محمد.<sup>(٢)</sup>

٢. وذكر السبط ابن الجوزي (المتوفى عام ٦٥٤هـ) في تذكرة

١. وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى: ٤٥٨/٢، الفصل التاسع.

٢. مروج الذهب ومعادن الجوهر: ٢٨٨/٢.

الخواص ص ٣١١ نظير ذلك.

٣. كما وصف محمد بن أبي بكر التلمساني المدينة الطيبة وبقيع الغرقد في القرن الرابع بقوله: وقبر الحسن بن علي عن يمينك إذا خرجت من الدرب ترتفع إليه قليلاً عليه مكتوب هذا قبر الحسن بن علي دفن إلى جنب أمه فاطمة عليها السلام.<sup>(١)</sup>

٤. يقول الحافظ محمد بن محمود بن النجار (المتوفى عام ٦٤٣هـ) في «اخبار مدينة الرسول ﷺ»: في قبة كبيرة عالية قديمة البناء في أول البقيع، وعليها بابان يفتح أحدهما في كل يوم للزيارة «رضي الله عنهم».<sup>(٢)</sup>

٥. ويقول ابن جبير الرحالة الطائر الصيت (المتوفى عام ٦١٤هـ) في رحلته في وصف بقيع الغرقد: يقع في مقابل قبر مالك قبر، السلالة الطاهرة إبراهيم بن النبي عليها قبة بيضاء، وعلى اليمين منها تربة ابن عمر ابن الخطاب، وبازائه قبر عقيل بن أبي طالب (رض) وعبد الله بن جعفر الطيار (رض)، وبازائهم روضة فيها أزواج النبي ﷺ، وبها روضة صغيرة فيها ثلاثة من أولاد النبي ﷺ، وروضة العباس بن عبد المطلب والحسن بن علي (رض) وهي قبة مرتفعة في الهواء على مقربة من باب البقيع المذكور، وعن يمين الخارج منه، ورأس

١. مجلة العرب، رقم ٦٠٥، المؤرخة ١٣٩٣هـ.

٢. اخبار مدينة الرسول اهتم بنشره صالح محمد جمال بمكة المكرمة عام ١٣٦٦.



الحسن إلى رجلي العباس وقبرهما مرتفعان عن الأرض متسعان مغشيان بالوواح ملصقة، أبدع الصاق، مرصعة بصفائح الصفر، ومكوبة بمسامير على أبدع صفة، وأجمل منظر، وعلى هذا الشكل قبر إبراهيم بن النبي ﷺ، ويلى هذه القبة العباسية بيت ينسب لفاطمة بنت الرسول ﷺ ويعرف ببيت الحزن... وفي آخر البقيع قبر عثمان الشهيد المظلوم ذي النورين وعليه قبة صغيرة مختصرة، وعلى مقربة منه مشهد فاطمة ابنة أسد أم علي رضي الله عنها وعن بنيتها.<sup>(١)</sup>

٦. وروى البلاذري أنه لما ماتت زينب بنت جحش سنة عشرين صلى عليها عمر، وكان دفنها في يوم صائف، ضرب عمر على قبرها فسطاطا.<sup>(٢)</sup>

ولم يكن الهدف من ضربه ذلك الفسطاط تسهيل الأمر لمن يتعاطى دفنها، بل لأجل تسهيله لأهلها حتى يتفنيوا بظله، ويقرأوا ما يتيسر من القرآن والدعاء.

٧. يقول السمهودي (المتوفى ٩١١هـ) في وصف بقيع الغرقد: قد ابتنى عليها مشاهد، منها المشهد المنسوب لعقيل بن أبي طالب وأمّهات المؤمنين، تحوي العباس والحسن بن علي... وعليهم قبة شائخة في الهواء، قال ابن النجار:... وهي كبيرة عالية، قديمة البناء، وعليها

١. رحله ابن جبیر، طبع بیروت، دار صادر، وقد زار ابن جبیر المدينة المنورة عام ٥٧٨هـ.

٢. انساب الأشراف: ١/٤٣٦.

بابان، يفتح أحدهما في كل يوم. وقال المطري: بناها الخليفة الناصر أحمد بن المستضيء... وقبر العباس وقبر الحسن مرتفعان من الأرض متسعان مغشيان بألواح ملصقة أبدع الصاق، مصحفة بصفائح الصفر، مكوكبة بمسامير على أبدع صفة وأجمل منظر.<sup>(١)</sup>

إلى غير ذلك من الرحالة الذين زاروا المدينة المنورة ووصفوا تلكم المزارات و المشاهد و القباب المرتفعة ونظر الكل إليها بعين الرضا والمحبة لا بعين السخط والغضب.

وهذا النوع من الاتفاق والإجماع من قبل علماء الإسلام طيلة قرون أقوى شاهد على جواز البناء على قبور الشخصيات الإسلامية الذين لهم منزلة ومكانة في القلوب.

ولنعم ما يقول العلامة العاملي:

مضت القرون وذو القباب مشيدة

والناس بين مؤسس ومجدد

في كل عصر فيه أهل الحل وال

عقد الذين بغيرهم لم يعقد

لم ينكروا أبداً على من شادها

شيدت ولا من منكر ومفند

فبيرة للمسلمين تتابععت

في كل عصر نستدل ونقتدي<sup>(٢)</sup>

١. وفاء الوفاء: ٣/٩١٦-٩٢٩.

٢. كشف الارتباب: ٣٩٥.

## البناء على القبور من منظور آخر

إنَّ صيانة القبور والآثار الباقية من بيت الوحي والعصمة ﷺ من مظاهر حب النبي ﷺ وتكريمه، وقد أمر المسلمون في الكتاب والسنة بحبه وتكريمه و تبجيله، قال سبحانه: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾<sup>(١)</sup>.

وقال سبحانه في وصف المؤمنين: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾<sup>(٢)</sup>.

فآلية الكريمة تأمر بأمر أربعة:

١. الإيمان به.
٢. تعزيره.
٣. نصرته.
٤. اتباع كتابه وهو النور الذي أنزل معه.

١. التوبة: ٢٤.

٢. الأعراف: ١٥٧.

وليس المراد من تعزيره هو نصرته، لأنه قد ذكره بقوله: «انصروه» وإنما المراد توقيره، وتكريمه وتعظيمه بما أنه نبي الرحمة والعظمة، ولا يختص تعزيره وتوقيره بحال حياته بل يعمها، كما أن الإيمان به والتبعية لكتابه لا يختصان بحال حياته الشريفة.

وعلى هذا فحب النبي ﷺ ومن يمت إليه بصلة أصل إسلامي يجب أن يهتم به المسلمون ويطبقونه في حياتهم.

ولأجل كرامة رسول الله ﷺ ومنزلته يدعو الذكر الحكيم إلى تعظيمه في المجالس وحفظ كرامته ويقول:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾<sup>(١)</sup>

وقال أيضاً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾<sup>(٢)</sup>.

وقال: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾<sup>(٣)</sup>.

فأي إجلال أبلغ من هذا، وأي تقدير أروع من هذا التقدير.

١. الحجرات: ٢.

٢. الحجرات: ٣.

٣. النور: ٦٣.

وليس الذكر الحكيم وحده هو الداعي والأمر بحب الرسول ﷺ، بل السنة النبوية تضافت على لزوم حبه.

قال رسول الله: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من والده وولده، والناس أجمعين»<sup>(١)</sup>.

وقد تواتر مضمون هذه الرواية عن النبي ﷺ، فمن أراد فليرجع إلى الكتب المعدة لهذا الغرض<sup>(٢)</sup>.

### مظاهر الحب

إن لهذا الحب مظاهر ومجالي، إذ ليس الحب شيئاً يستقر في صقع النفس من دون أن يكون له انعكاس خارجي على أعمال الإنسان وتصرفاته، بل من خصائصه أن يظهر أثره على سلوك الإنسان وملاحظه.

١. حب الله ورسوله لا ينفك عن اتباع دينه والاستئنان بسنته والانتهاز عن نواهيه، ولا يعقل أبداً أن يكون المرء محباً لرسول الله ﷺ، ومع ذلك يخالفه فيما يبغضه ولا يرضيه. و الإلتباع أحد مظاهر الحب قال سبحانه: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾<sup>(٣)</sup>. فمن ادعى الحب في النفس وخالف في العمل، فقد جمع بين شيئين متخالفين متضادين.

١. صحيح البخاري: ٨/١، باب حب الرسول من الإيمان من كتاب الإيمان.

٣. آل عمران: ٣١.

٢. كنز العمال: ١٢٦/٢.

وقد نسب إلى الإمام الصادق عليه السلام البيتان التاليان:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه      هذا لعمرى في الفعال بديع  
لو كان حبك صادقاً لأطعته      إن المحب لمن يحب مطيع<sup>(١)</sup>

٢. ومن مظاهر هذا الحب، صيانة آثارهم وحفظ معالمهم والعناية بكل ما يتصل بهم حتى الاحتفاظ بما صلوا فيه من البسة أو شربوا منه الماء من أوان أو استخدموه من أشياء، وتشيد مراقدهم، وتعمير قبورهم ... كل ذلك انعكاس طبيعي لهذا الحب الكامن في النفوس والود المتمكن في القلوب.

وليس هذا أمراً مختصاً بالمسلمين، بل الأمم المتحضرة المعتزة بباطيها وتاريخها، تسعى إلى صيانة كل أثر تاريخي باق من الماضي وصيانة مراقدهم شخصياتهم العلمية .

وأخيراً نقول: لا شك أن لهدم الآثار والمعالم التاريخية الإسلامية لا سيما في مهد الإسلام مكة ومهجر النبي صلى الله عليه وآله وسلم المدينة المنورة، نتائج ومضاعفات خطيرة على الأجيال اللاحقة التي سوف لا تجد أثراً لوقائع التاريخ الإسلامي، وربما تؤول إلى الاعتقاد بأن الإسلام قضية مفتعلة وفكرة مبتدعة ليس لها جذور تاريخية، تماماً كما أصبحت قضية السيد المسيح عليه السلام في نظر الغرب قضية اسطورية حاكتها أيدي البابوات

والقساوسة، لعدم وجود آثار ملموسة تدل على أصالة هذه القضية ووجودها التاريخي.

### إيضاح حديث أبي هياج

بقي هنا سؤال وهو أنّ مقتضى هذه الأدلة وإن كان هو جواز البناء على القبور لكن الحديث العلويّ يمنعنا عنه وهو ما أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هياج الأسدي، قال: قال لي علي بن أبي طالب: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ أن لا تدع تمثالاً إلا طمسته ولا قبراً مشرفاً إلا سويته.<sup>(١)</sup>

والجواب: أنّ الحديث يدل على لزوم تسطیح القبور مقابل تسويمها ولا صلة له ببناء القبور أو البناء عليه وذلك أنّ لفظة «التسوية» تستعمل في معنيين:

١. تطلق ويراد منها مساواة شيء بشيء فعندئذ تتعدى إلى المفعول الثاني بحرف التعدية كالبناء قال سبحانه: ﴿إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.<sup>(٢)</sup>

وقال سبحانه حاكياً عن حال الكافرين يوم القيامة: ﴿يَوْمَئِذٍ

١. صحيح مسلم: ٣/٦٠، باب الأمر بتسوية القبر؛ و السنن للترمذي: ٢/٢٥٦، باب ما جاء في تسوية القبور.

٢. الشعراء: ٩٨.

يُودُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ تَسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضَ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿١﴾ أي يودون أن يكونوا تراباً أو أمواتاً تحت الأرض.

٢. تطلق ويراد منها ما هو وصف لنفس الشيء لا بمقايسته إلى شيء آخر، فعندئذٍ تكتفي بمفعول واحد.

قال سبحانه: ﴿الَّذِي خَلَقَ نَسَوَى﴾. (٢)

وقال سبحانه: ﴿بَلَى قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ نَسُوِيَ بَنَانَهُ﴾. (٣)

ففي هذين الموردين تقع التسوية وصفاً للشيء لا باضافته إلى غيره.

إذا عرفت ذلك فلنرجع إلى تفسير الحديث فنقول:

لو أراد من قوله: سويته هو مساواة القبر بالأرض - كمساواة شيء بشيء - يلزم أن يتخذ مفعولاً ثانياً بحرف الجر كأن يقول سويته بالأرض أي جعلتها متساويين والمفروض أنه اقتصر بمفعول واحد دون الثاني.

فتعين أن المراد هو الثاني أي كون المساواة وصفاً لنفس الشيء وهو القبر ومعناه عندئذٍ تسطیح القبر في مقابل تسويمه، وبسطه في

١. النساء: ٤٢.

٢. الأعلى: ٢.

٣. القيامة: ٤.



مقابل اعوجاجه، وهذا هو الذي فهمه شراح الحديث، وبها أنّ السنة هي التسطيح، والتسليم طراً بعد ذلك، أمر عليّ عليه السلام بأن يكافح البدعة ويسطح كل قبر مسنم.

ومما يؤيد أنّ المراد هو تسطيح القبر أنّ مسلم في صحيحه عنون الباب هكذا «باب الأمر بتسوية القبر» ثمّ نقل رواية عن ثمامة أنّه قال: كنّا مع فضالة بن عبيد في أرض الروم، فتوفي صاحب لنا، فأمر فضالة بن عبيد بقبوره فسوي. قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يأمر بتسويته ثمّ أورد بعده حديث أبي الهياج المتقدم.<sup>(١)</sup>

وقد فسره أيضاً بما ذكرنا الفقيه القرطبي حيث قال: قال علماؤنا ظاهر حديث أبي الهياج منع تسنيم القبور ورفعها.<sup>(٢)</sup>

١. صحيح مسلم: ٣/٦١، باب الأمر بتسوية القبر.

٢. تفسير القرطبي: ١٠/٣٨٠.

## بناء المساجد على القبور والصلاة فيها

إنَّ بناء المساجد على القبور أو عندها والصلاة فيها مسألة فقهية فرعية لا تمتُّ إلى العقائد بصلة.

فالمرجع في هذه المسائل هم أئمة المذاهب وفقهاء الدين يستنبطون حكمها من الكتاب والسنة، وليس لنا تكفير أو تفسيق واحد من الطرفين إذا قال بالجواز أو بعدمه، وكم من مسألة فقهية اختلفت فيها آراء الفقهاء والمجتهدين، ونحن بدورنا نعرض المسألة على الكتاب والسنة لنستنبط حكمها من أوثق المصادر الفقهية.

الذكر الحكيم يشرح لنا كيفية عثور الناس على قبور أصحاب الكهف وأنهم - بعد العثور - اختلفوا في كيفية تكريمهم وإحياء ذكراهم والتبرُّك بهم على قولين: فمن قائل: يُبنى على قبورهم بنيان ليُخلد ذكراهم بين الناس.

إلى قائل آخر: يبنى على قبورهم مسجداً يصلَّى فيه.

وقد حكى سبحانه كلا الاقتراحين من دون تنديد بواحد منها،

قال سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَتَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّهُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُيُوتًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾<sup>(١)</sup>.

قال المفسرون: إن الاقتراح الأول كان لغير المسلمين ويؤيده قولهم في حق أصحاب الكهف: ﴿رَبَّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ وهو ينم عن اهتمام بالغ بحالهم ومكانتهم فحوّلوا أمرهم إلى ربهم.

وأما الاقتراح الثاني فنفس المضمون (اتخاذ قبورهم مسجداً) شاهد على أنّ المقترحين كانوا هم المؤمنين، وما اقترحوا ذلك إلا للتبرك بالمكان الذي دفنت فيه أجساد هؤلاء الموحدين.

والقرآن يذكر ذلك الاقتراح من دون أن يعقب عليه بنقد أو رد وهو يدل على كونه مقبولاً عند منزل الوحي.

قال الطبري في تفسير الآية: إن المبعوث دخل المدينة فجعل يمشي بين ظهري سوقها فيسمع أناساً كثيرين يحلفون باسم عيسى بن مريم، فزاده فرحاً ورأى أنه حيران، فقام مُسنداً ظهره إلى جدار من جُدُر المدينة، ويقول في نفسه: والله ما أدري ما هذا أما عشية أمس فليس على الأرض إنسان يذكر عيسى بن مريم إلا قتل، وأما الغداة فأسمعهم وكل إنسان يذكر أمر عيسى لا يخاف، ثم قال في نفسه:

لعل هذه ليست بالمدينة التي أعرف.<sup>(١)</sup>

### سيرة المسلمين في البناء على قبور الصالحين

إن سيرة المسلمين تكشف عن جواز بناء المساجد على قبور الصالحين الذين يُتبرك بهم ولهم مكانة عالية في قلوبهم، ويدل على ذلك الأمور التالية:

أ. دفن النبي ﷺ في بيته الذي فيه وكان في جوار المسجد النبوي ولما كثر المسلمون وازداد عددهم وضاق المسجد بهم أدخلوا الجانب الشرقي - الذي كان فيه بيوت أزواج النبي ﷺ والبيت الذي دفن فيه - في المسجد النبوي على نحو يقف المصلون أطراف القبر من الجوانب الأربعة ويحيطون به.

يقول الطبري في حوادث سنة ٨٨: إنه في شهر ربيع الأول من هذه السنة قدم كتاب الوليد على عمر بن عبد العزيز يأمره بهدم المسجد النبوي وإضافة حجر رسول الله ﷺ وأن يوسع من قبلته وسائر نواحيه، باشتراء الأملاك المحيطة به، فأخبر عمر الفقهاء العشرة وأهل المدينة بذلك، فحبذوا بقاء تلك الحُجُر على حالها ليعتبر بها المسلمون، ويكون أدعى لهم إلى الزهد اقتداءً بنبيهم، فكتب ابن عبد العزيز الوليد في ذلك، فأرسل إليه يأمره بالخراب، وتنفيذ ما ذكره في كتابه

الأول، فضجّ بنو هاشم وتباكوا، ولكن عمر نقذ ما أمره به الوليد، فأدخل الحجرة النبوية (حجرة عائشة) في المسجد، فدخل القبر في المسجد وسائر حجرات أمّهات المؤمنين وقد بني عليه سقف مرتفع كما أمر الوليد.<sup>(١)</sup>

فإذا كان هذا العمل بمرأى ومسمع من فقهاء المدينة العشرة والمسلمين عامة، وفي مقدم التابعين منهم علي بن الحسين زين العابدين وابنه محمد بن علي الباقر عليه السلام اللذين لم يشك أحد في زهدهما وعلمهما وعرفانها. فهو أوضح دليل على جواز إقامة المسجد عند قبور الأنبياء والصالحين والصلاة فيه.

وقد أقر هذا العمل كلّ التابعين وجاء بعدهم إمام دار الهجرة مالك أحد أئمة المذاهب الأربعة فلم يعترضوا عليه بشيء.

ب. يقول السهمودي في حقّ السيدة فاطمة بنت أسد أمّ الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام: فلما توفيت خرج رسول الله فأمر بقبورها فحفر في موضع المسجد الذي يقال له اليوم قبر فاطمة.<sup>(٢)</sup>

والعبارة تدل على أنّهم بنوا المسجد بعد تدفينها.

وقال في موضع آخر: إنّ مصعب بن عمير وعبد الله بن جحش دفنا تحت المسجد الذي بني على قبر حمزة.<sup>(٣)</sup>

١. راجع تاريخ الطبري: ٥/ ٢٢٢؛ البداية والنهاية: ٨/ ٦٥.

٢. وفاء الوفاء: ٣/ ٨٩٧.

٣. المصدر السابق: ٣/ ٩٢٢.

ج. أنّ السيدة عائشة قضت حياتها في بيتها وصلت فيه تمام عمرها، ولم يكن بينها وبين القبر أي جدار إلى أن دفن عمر فبني جدار حال بينها وبين القبور الثلاثة.<sup>(١)</sup>

د. روى البيهقي أنّ فاطمة بنت النبي ﷺ كانت تذهب إلى زيارة قبر عمها حمزة فتبكي وتصلي عنده.<sup>(٢)</sup>

أخرج الحاكم، عن سليمان بن داود، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن علي بن الحسين ﷺ، عن أبيه، أنّ فاطمة بنت النبي ﷺ كانت تزور قبر عمها حمزة كل جمعة فتصلي وتبكي عنده.

قال الحاكم: وهذا الحديث رواه عن آخرهم ثقات. وأقرّه الذهبي عليه ونقله البيهقي في سننه.<sup>(٣)</sup>

وهذا يدل على بناء المسجد على قبر حمزة في حياة النبي ﷺ والصلاة فيه.

هـ. أنّ النبي ﷺ - في معرجه الذي بدأ به من المسجد الأقصى - نزل في المدينة، وطور سينا وبيت لحم، وصلّى فيها، فقال جبرئيل: صلّيت في «طية» وإليها مهاجرتك، وصلّيت في طور سينا حيث كلم الله موسى، وصلّيت في بيت لحم حيث ولد المسيح.<sup>(٤)</sup>

١. وفاء الوفاء: ٢/ ٥٤١.

٢. السنن الكبرى: ٤/ ٧٨.

٣. مستدرک الحاكم: ١/ ٣٧٧.

٤. الخصائص الكبرى: ١/ ١٥٤.

هل هناك فرق بين المدفن والمولد، مع أنّ الصلاة في كلي، لغاية واحدة وهي التبرك بالإنسان المثالي الذي مسّ جسده الطاهر، ذلك التراب بداية عمره أو نهايته؟!

وبما أنّ الكتاب - مضافاً إلى السيرة المستمرة بعد رحيل رسول الله ﷺ إلى يومنا هذا - دليل قطعي، يكون محكماً يؤخذ به، وما دلّ على خلافه، يكون متشابهاً، فيرد إلى المحكم ويفسره بفضله.

ربما يتراءى من بعض الروايات عدم جواز اتخاذ قبور الأنبياء مساجد.

فروي عن رسول الله ﷺ أنّه قال: قاتل الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد.

وفي رواية أخرى: لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد.

وفي رواية ثالثة: ألا وإنّ من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد.<sup>(١)</sup>

ولنا مع هذه الأحاديث وقفة قصيرة، وذلك لأنّ تاريخ اليهود لا يتفق مع مضامين تلك الروايات، لأنّ سيرتهم قد قامت على قتل

١. للوقوف على مصادر هذه الأحاديث راجع صحيح البخاري: ١١١/٢ كتاب الجنائز؛ سنن النسائي: ٨٧١/٢، كتاب الجنائز؛ صحيح مسلم: ٦٨/٢، باب النهي عن بناء المساجد على القبور من كتاب المساجد.

الأنبياء وتشريدهم وإيذائهم إلى غير ذلك من أنواع البلايا التي كانوا يصبرونها على أنبيائهم.

ويكفي في ذلك قوله سبحانه: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُ دُونُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (١).

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢).

وقال سبحانه: ﴿فِيمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفِّرْتُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ...﴾ (٣).

أفتزعم أن أمة قتلت أنبياءها في مواطن مختلفة تتحول إلى أمة تشيد المساجد على قبور أنبيائها تكريماً وتبجيلاً لهم.

وعلى فرض صدور هذا العمل عن بعضهم، فللحديث محتملات أخرى غير الصلاة فيها والتبرك بصاحب القبر وهي:

أ. اتخاذ القبور قبلة.

ب. السجود على القبور تعظيماً لها بحيث يكون القبر مسجوداً عليه.

١. آل عمران: ١٨١.

٢. آل عمران: ١٨٣.

٣. النساء: ١٥٥.



ج. السجود لصاحب القبر بحيث يكون هو المسجود له، فالقدر المتيقن هو هذه الصور الثلاث لا بناء المسجد على القبور تبركاً بها. والشاهد على ذلك أن الرسول ﷺ حسب بعض الروايات يصف هؤلاء بكونهم شرار الناس .

أخرج مسلم في كتاب المساجد: أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأيتها بالحبشة فيها تصاوير لرسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: **إِنَّ أَوْلَئِكَ إِذَا كَانَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ فَمَاتَ بَنِي عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِداً، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّورَ، وَأَوْلَئِكَ شَرَّارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.**<sup>(١)</sup>

إن وصفهم بشرار الخلق يميظ اللثام عن حقيقة عملهم إذ لا يوصف الإنسان بالشر المطلق إلا إذا كان مشركاً - وإن كان في الظاهر من أهل الكتاب - قال سبحانه: **﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضَّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يُعْقِلُونَ﴾.**<sup>(٢)</sup>

وقال: **﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.**<sup>(٣)</sup>

وهذا يعرب عن أن عملهم لم يكن صرف بناء المسجد على القبر والصلاة فيه، أو مجرد إقامة الصلاة عند القبور، بل كان عملاً مقروناً بالشرك بألوانه وهذا كما في اتخاذ القبر مسجوداً له أو مسجوداً عليه أو

١. صحيح مسلم: ٦٦/٢، باب النهي عن بناء المساجد على القبور من كتاب المساجد.

٢. الأنفال: ٢٢.

٣. الأنفال: ٥٥.

قبلة يصلّى إليه.

قال القرطبي: وروى الأئمة عن أبي مرثد الغنوي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا تصلّوا إلى القبور، ولا تجلسوا عليها «لفظ مسلم» أي لا تتخذوها قبلة فتصلّوا عليها أو إليها كما فعل اليهود والنصارى فيؤدي إلى عبادة من فيها.<sup>(١)</sup>

إن الصلاة عند قبر الرسول ﷺ إنّما هي لأجل التبرّك بمن دفن، ولا غرور فيه وقد أمر سبحانه الحجيج باتخاذ مقام إبراهيم مصلّى قال سبحانه: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾.<sup>(٢)</sup>

إن الصلاة عند قبور الأنبياء كالصلاة عند مقام إبراهيم غير أن جسد النبي إبراهيم عليه السلام لا لمس هذا المكان مرة أو مرات عديدة، ولكن مقابر الأنبياء احتضنت أجسادهم التي لا تبلى أبداً.

هذا وإن علماء الإسلام فسروا الروايات الناهية بمثل ما قلناه.

قال البيضاوي: لما كانت اليهود والنصارى يسجدون لقبور الأنبياء تعظيماً لشأنهم ويجعلونها قبلة يتوجهون في الصلاة نحوها، واتخذوها أوثاناً، لعنهم ومنع المسلمين عن مثل ذلك. فأما من اتخذ مسجداً في جوار صالح وقصد التبرّك بالقرب منه لا للتعظيم ولا

١. تفسير القرطبي: ٣٨/١٠.

٢. البقرة: ١٢٥.

للتوجه ونحوه، فلا يدخل في الوعيد المذكور.<sup>(١)</sup>

وقال السندي شارح سنن النسائي: اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، أي قبة للصلاة ويصلون إليها، أو بنوا مساجد يصلون فيها، ولعل وجه الكراهة أنه قد يفضي إلى عبادة نفس القبر.

إلى أن يقول: يحذر النبي ﷺ أمته أن يصنعوا بقبره ما صنع اليهود والنصارى بقبور أنبيائهم من اتخاذ تلك القبور مساجد، إمّا بالسجود إليها تعظيماً لها أو بجعلها قبة يتوجهون في الصلاة إليها.<sup>(٢)</sup>

---

١. فتح الباري في شرح صحيح البخاري: ١/٥٢٥، طبعة دار المعرفة؛ وقريب منه ما في إرشاد الساري في شرح صحيح البخاري: ٢/٤٣٧، باب بناء المسجد على القبور.  
٢. سنن النسائي: ٤١/٢.

## التوصل بالأنبياء و الصالحين

إنّ عالم الكون عالم فسيح لا يحيط الإنسان بأسراره ودقائقه، وما اكتشفه الإنسان منها فإنّما هو ضئيل بالنسبة إلى ما خفي عليه.

كيف وما أوتي من العلم إلا قليلاً ، قال سبحانه: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾. (١)

هذا هو العالم الفيزيائي الذائع الصيت أنشتاين (المتوفى عام ١٩٥٥م) قال: إنّ نسبة ما أعلم إلى ما لا أعلم كنسبة هذا الدرج إلى مكتبتي. (٢)

ولو أنصف لكان عليه أن يقول حتى أقل من هذه النسبة، وكان الأولى أن يقول نسبة هذا الدرج إلى أطباق السماء.

وعلى ضوء ذلك فللّه سبحانه في هذا العالم أسباب و علل لم يصل إليها البشر مع ما بذل من الجهود.

١. الاسراء: ٨٥.

٢. مجلة رسالة الإسلام السنة الرابعة، العدد الأول، مقال الكاتب المصري أحمد أمين.

ثم إن الأسباب تنقسم إلى طبيعية ومادية وإلى غيبية وإلهية، أما الأول فالنظام الكائن مبني على العلل والأسباب الطبيعية وتأثير كل سبب طبيعي ومادي بإذن الله سبحانه، وليس للعلم دور سوى الكشف عن هذه الأسباب المادية.

غير أن المادي ينظر إلى هذه الأسباب بنظرة استقلالية ولكن الإلهي ينظر إليها نظرة تبعية قائمة بالله سبحانه، مؤثرة بإذنه، وهذا هو ذو القرنين يتمسك بالأسباب الطبيعية في إيجاد السد أمام يأجوج ومأجوج ويستعين بالأسباب ولا يراها مخالفاً للتوحيد.

قال سبحانه حاكياً عنه: ﴿أَتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قَطْرًا ۗ فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ۗ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ۗ﴾ (١)

إن الاستعانة بالأحياء والاستغاثة بهم أمر جرت عليه سيرة العقلاء، وهذا موسى الكليم استغاثه بعض شيعته فأجابته دون أن يخطر ببال أحد أن الاستغاثة لا تجوز إلا بالله، قال سبحانه: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۗ﴾ (٢).

وما هذا إلا لأن موسى وشيعته تعتقد بأن المغيث إنما يغيث بقوة وإذن منه سبحانه، فلا مانع من طلب النجدة والاستغاثة والاستعانة من الأحياء شريطة القيد المذكور، وقد أُشير إليه في قوله سبحانه: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (١).



كل ما ذكرنا كان يعود إلى التوسل بالأحياء والأسباب الطبيعية، وهذا ليس مورد بحث و نقاش.

إنما الكلام في التوسل بالأنبياء والأولياء لا على الطريق المألوف وله أقسام:

- أ. التوسل بدعاء النبي ﷺ أو الصالحين في حال حياتهم.
  - ب. التوسل بذات النبي ﷺ قدسيته وشخصيته.
  - ج. التوسل بحق النبي ﷺ والأنبياء والصالحين.
  - د. التوسل بدعاء النبي ﷺ والصالحين بعد رحيلهم.
  - هـ. طلب الشفاعة من النبي ﷺ والأولياء.
- وإليك دراسة كل واحد منها:

أ. التوسل بدعاء النبي ﷺ أو الصالحين في حال حياتهم

اتفق المسلمون على جواز التوسل بدعاء الرسول ﷺ في حال

حياته، بل يستحب التوسل بدعاء المؤمن كذلك، قال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ (١).

تجد أنه سبحانه يدعو الظالمين إلى المجيء إلى مجلس الرسول ﷺ كي يستغفر لهم النبي ﷺ.

وفي آية أخرى يندد بالمنافقين بأنهم إذا دعوا إلى المجيء إلى مجلس الرسول ﷺ وطلب المغفرة منه تنكروا ذلك واعترضوا عليه بئى الرأس، قال سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّأُ رُؤُسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ (٢).

وتاريخ الإسلام حافل بنماذج عديدة من هذا النوع من التوسل.

### ب. التوسل بذات النبي ﷺ و قدسيته وشخصيته

وها هنا وثيقة تاريخية نقلها بنصها تعرب عن توسل الصحابة بدعاء النبي ﷺ في حال حياته أولاً، وبقدسيته وشخصيته ثانياً، والمقصود من نقلها هو الاستدلال على الأمر الثاني.

روى عثمان بن حنيف أنه قال: إن رجلاً ضريراً أتى النبي ﷺ فقال: ادع الله أن يعافيني؟

١. النساء: ٦٤.

٢. المنافقون: ٥.

فقال ﷺ: إن شئت دعوت، وإن شئت صبرت وهو خير؟

قال: فادعه، فأمره ﷺ أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويصلي ركعتين ويدعو بهذا الدعاء: «اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي لتقضى، اللهم شفعه في».

قال ابن حنيفة: فوالله ما تفرقنا وطال بنا الحديث حتى دخل علينا كأن لم يكن به ضرر.

وهذه الرواية من أصح الروايات، قال الترمذي: هذا حديث حق، حسن صحيح<sup>(١)</sup>.

وقال ابن ماجه: هذا حديث صحيح<sup>(٢)</sup>.

ويستفاد من الحديث أمران:

الأول: أن يتوسل الإنسان بدعاء النبي ﷺ ويدل على ذلك قول الضرير: ادع الله أن يعافيني، وجواب الرسول ﷺ: إن شئت دعوت، وإن شئت صبرت وهو خير.

الثاني: أنه يجوز للإنسان الداعي أن يتوسل بذات النبي ﷺ في ضمن دعائه وهذا يستفاد من الدعاء الذي علمه النبي ﷺ للضرير،

١ و٢. صحيح الترمذي ٥، كتاب الدعوات، الباب ١١٩ برقم ٣٥٧٨؛ سنن ابن ماجه ١/١: ٤٤١ برقم ٤١٣٨٥؛ مسند أحمد: ٤/١٣٨؛ إلى غير ذلك.



والإمعان فيه يثبت هذا المعنى، وأنه يجوز لكل مسلم في مقام الدعاء أن يتوسل بذات النبي ﷺ ويتوجه به إلى الله.

وإليك الجمل التي تدل على هذا النوع من التوسل:

١. اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك

أن كلمه «بنبيك» متعلق بفعالين «أسألك» و«أتوجه إليك» والمراد من النبي ﷺ نفسه القدسية وشخصيته الكريمة لا دعاه.

٢. محمد نبي الرحمة

نجد أنه يذكر اسم النبي ﷺ ثم يصفه بنبي الرحمة معرباً عن أن التوسل بذات النبي ﷺ بها لها من الكرامة والفضيلة.

٣. يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي

إن جملة: «يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي» تدل على أن الضرير حسب تعليم الرسول، اتخذ النبي ﷺ نفسه وسيلة لدعائه وتوسل بذاته بها لها من المقام والفضيلة.

وهذا الحديث يرشدنا إلى أمرين:

الأول: جواز التوسل بدعاء الرسول.

الثاني: جواز التوسل إلى الله بذات النبي ﷺ بها لها من الكرامة والمنزلة عند الله تبارك وتعالى.

أما الأول، فقد جاء في محاوره الضرير مع النبي ﷺ، فكان

الموضوع هو دعاء الرسول، أي طلب الضرير الدعاء منه ﷺ.  
 وأما الثاني، فيستفاد من الدعاء الذي علمه الرسول ﷺ للضرير،  
 فإنه يضمن التوسل بشخص النبي ﷺ.

نعم لم يكن يدور في خلد الضرير سوى التوسل بدعائه ولكن  
 الرسول ﷺ علمه دعاء جاء فيه التوسل بذات النبي ﷺ وهو في نوعه  
 توسل ثان، وبذلك وقفنا على أنه يستحب للمسلم أن يتوسل بدعاء  
 الصالحين من الأنبياء والأولياء كما يجوز له في دعائه التوسل بذواتهم  
 ومقامهم ومنزلتهم.

ويظهر من الأحاديث الشريفة أن أصحاب النبي ﷺ كانوا  
 يتوسلون بذات النبي ﷺ في مقام الابتهاال والدعاء حتى بعد رحيل  
 النبي ﷺ.

أخرج الطبراني، عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف، عن عمه  
 عثمان بن حنيف: أن رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفان في حاجة  
 له، فكان عثمان لا يلتفت إليه ولا ينظر في حاجته، فلقي ابن حنيف  
 فشكا ذلك إليه، فقال له عثمان بن حنيف: ائتِ الميضاة فتوضأ، ثم  
 ائتِ المسجد فصل في ركعتين، ثم قل: «اللهم إني أسألك وأتوجه  
 إليك بنبينا محمد ﷺ نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي فتقضى  
 لي حاجتي» فتذكر حاجتك ورح حتى أروح معك.

فانطلق الرجل فصنع ما قال له، ثم أتى باب عثمان بن عفان،

فجاء البواب حتى أخذ بيده فأدخله على عثمان بن عفان، فأجلسه معه على الطنفسة، فقال: [ما] حاجتك؟ فذكر حاجته وقضاها له، ثم قال له: ما ذكرت حاجتك حتى كان الساعة. وقال: ما كانت لك من حاجة فاذكرها.

ثم إن الرجل خرج من عنده فلقي عثمان بن حنيف، فقال له: جزاك الله خيراً ما كان ينظر في حاجتي ولا يلتفت إليّ حتى كلمته في، فقال عثمان بن حنيف: والله ما كلمته، ولكنني شهدت رسول الله ﷺ وأتاه ضرير فشكا إليه ذهاب بصره، فقال له النبي ﷺ: فتصبر؟ فقال: يا رسول الله ليس لي قائد وقد شقّ عليّ.

فقال النبي ﷺ: إئت الميضاة فتوضأ، ثم صلّ ركعتين، ثم ادع بهذه الدعوات.

قال ابن حنيف: فوالله ما تفرقنا وطال بنا الحديث حتى دخل علينا الرجل كأنه لم يكن به ضرر قط. (١)

\*\*\*

إن سيرة المسلمين في حياة النبي ﷺ وبعدها، استقرت على أنهم كانوا يتوسلون بأولياء الله والصالحين من عباده، دون أن يدور في خلد أحد منهم بأنه أمر حرام أو شرك أو بدعة، بل كانوا يرون التوسل بدعاء

١. المعجم الكبير للمحافظ سليمان بن أحمد الطبراني: ٩/ ٣٠-٣١، باب ما أسند إلى عثمان بن حنيف برقم ٨٣١١؛ والمعجم الصغير له أيضاً: ١/ ١٨٣-١٨٤.

الصالحين طريقاً إلى التوسل بمنزلتهم، وشخصيتهم، فإنه لو كان لدعاء الرجل الصالح أثر، فإنما هو لأجل قداسة نفسه وطهارتها، ولولاها لما استجيبت دعوته، فما معنى الفرق بين التوسل بدعاء الصالح وبين التوسل بشخصه وذاته، حتى يكون الأول نفس التوحيد والآخر عين الشرك أو ذريعة إليه.

إن التوسل بقدسية الصالحين، والمعصومين من الذنوب، والمخلصين من عباد الله لم يكن قط أمراً جديداً بين الصحابة بل كان ذلك امتداداً للسيرة الموجودة قبل الإسلام، فقد تضافرت الروايات التاريخية على ذلك وإليك البيان:

### ١. استسقاء عبد المطلب بالنبي ﷺ وهو رضيع:

لقد استسقى عبد المطلب بالنبي ﷺ وهو طفل صغير، حتى قال ابن حجر: إن أبا طالب يشير بقوله:

وابيض يستسقى الغمام بوجهه  
ثمال اليتامى عصمة للأرامل

إلى ما وقع في زمن عبد المطلب حيث استسقى لقريش والنبي ﷺ معه غلام. (١)

### ٢. استسقاء أبي طالب بالنبي ﷺ:

أخرج الحلبي عن جلهمة بن عرفلة، قال: قدمت مكة وقريش في

١. فتح الباري: ٢/٣٩٨؛ دلائل النبوة: ٢/١٢٦.

قحط .... فقالت قريش: يا أبا طالب أتحط الوادي وأجدب العيال، فهلم فاستسق، فخرج أبو طالب ومعه غلام - يعني: النبي ﷺ كأنه شمس دجن تجلت عنه سحابة قتها، وحوله اغيلمة، فأخذه أبو طالب فألصق ظهره بالكعبة، ولاذ باصبعه الغلام وما في السماء فزعه، فأقبل السحاب من هاهنا ومن هاهنا واغدودق وانفجر له الوادي وأخصب النادي والبادي، وفي ذلك يقول أبو طالب في قصيدة يمدح بها النبي ﷺ:

وابيض يستسقى الغمام بوجهه      ثمال اليتامى عصمة للأرامل<sup>(١)</sup>

وقد كان استسقاء أبي طالب بالنبي ﷺ وهو غلام، بل استسقاء عبد المطلب به وهو صبي أمراً معروفاً بين العرب، وكان شعر أبي طالب في هذه الواقعة مما يحفظه أكثر الناس.

ويظهر من الروايات أنّ استسقاء أبي طالب بالنبي ﷺ كان موضع رضا من رسول الله ﷺ فإنه بعد ما بعث للرسالة استسقى للناس، فجاء المطر واخصب الوادي فقال النبي ﷺ: «لو كان أبو طالب حياً لفقرت عيناه، من ينشدنا قوله؟».

فقام علي عليه السلام وقال: يا رسول الله ﷺ كأنك أردت قوله:

وابيض يستسقى الغمام بوجهه      ثمال اليتامى عصمة للأرامل<sup>(٢)</sup>

١. السيرة الحلبية: ١١٦/١.

٢. إرشاد الساري: ٣٣٨/٢.

إنّ التوسل بالأطفال الأبرياء في الاستسقاء أمر ندب إليه الشرع الشريف، فهذا هو الإمام الشافعي يقول: أن يخرج الصبيان، ويتنظفوا للاستسقاء وكبار النساء ومن لا هيئة له منهنّ، ولا أحب خروج ذوات الهيئة ولا أمر بإخراج البهائم.<sup>(١)</sup>

وما الهدف من إخراج الصبيان والنساء الطاعنات في السن، إلا استنزال الرحمة بهم وبقداستهم وطهارتهم، وكلّ ذلك يعرب عن أنّ التوسل بالأبرياء والصلحاء والمعصومين مفتاح استنزال الرحمة وكأنّ المتوسل بهم يقول: ربّي و سيدي أنّ الصغير معصوم من الذنب، والكبير الطاعن في السن أسيرك في أرضك، وكلتا الطائفتين أحقّ بالرحمة والرحمة، فلاجلهم أنزل رحمتك إلينا، حتى تعمنا في ظلهم. فإنّ الساقى ربما يسقي مساحة كبيرة لأجل شجرة واحدة وفي ظلها تسقى الأعشاب غير المفيدة.

وعلى ضوء هذا التحليل يفسر توسل الخليفة بعمّ الرسول: «العباس بن عبد المطلب» الذي سيمر عليك، وأنّه كان توسلاً بشخصه وقداسته وصلته بالرسول ﷺ وتعلم بالتالي أنّ هذا العمل كان امتداداً للسيرة المستمرة، وأنّ هذا لا يمت إلى التوسل بدعاء العباس بصلة.

١. الأم: ١/٢٤٨، باب خروج النساء والصبيان في الاستسقاء.

### ٣. التوسل بعمّ النبي ﷺ

أخرج البخاري في صحيحه ، عن أنس : «أنّ عمر بن الخطاب كان إذا قَحَطُوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب (رض) فقال: اللهمّ إنّنا كنا نتوسل إليك بنبيّنا ففسقنا، وأنا نتوسل إليك بعمّ نبيّنا فاسقنا. قال: فيسقون»<sup>(١)</sup>.

هذا ما نصّ عليه البخاري وهو يدل على أنّ عمر بن الخطاب عند دعائه واستسقائه توسل بعمّ النبي ﷺ وشخصه وشخصيته وقدسيته وقرابته من النبي ﷺ لا بدعائه ويدل على ذلك:

قول الخليفة عند الدعاء: «اللهمّ كنا نتوسل إليك بنبيّنا ففسقنا وأنا نتوسل إليك بعمّ نبيّنا فاسقنا» وهذا ظاهر في أنّ الخليفة قام بنفسه بالدعاء عند الاستسقاء، وتوسل بعمّ الرسول وقرابته منه في دعائه.

### ج. التوسل بحقّ النبي ﷺ والأنبياء والصالحين

وهناك لون آخر من التوسل وهو التوسل بحقّ الأنبياء والمرسلين، والمراد الحقّ الذي تفضل به سبحانه عليهم فجعلهم أصحاب الحقوق، وليس معنى ذلك أنّ للعباد أو للصالحين على الله حقّاً ذاتياً يلزم عليه تعالى الخروج منه، بل الحقّ كلّّه لله، وإنّما المراد،

١. صحيح البخاري: ٢٧/٢، باب صلاة الاستسقاء، باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا من كتاب الصلاة.

الحق الذي منحه سبحانه لهم تكريماً، وجعلهم أصحاب حق على الله، كما قال سبحانه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١).

ويدل على ذلك من الروايات ما يلي:

أ. روى أبو سعيد الخدري: قال: قال رسول الله ﷺ: من خرج من بيته إلى الصلاة، وقال: اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك، وأسألك بحق ممشاي هذا، فإني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياء ولا سمعة وخرجت اتقاء سُخْطِكَ وابتغاء مرضاتك، فأسألك أن تعيذني من النار، وأن تغفر لي ذنوبي إنّه لا يغفر الذنوب إلا أنت، أقبل الله عليه بوجهه واستغفر له سبعون ألف ملك. (٢)

ب. روى عمر بن الخطاب، قال: قال رسول الله ﷺ: لما اقترف آدم الخطيئة، قال: ربّي أسألك بحق محمد لما غفرت لي، فقال الله عزّ وجلّ: يا آدم كيف عرفت محمداً ولم أخلقك قال: لأنك لما خلقتني بيدك ونفخت فيّ من روحك، رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوباً لا إله إلا الله، محمد رسول الله، فعلمت أنك لم تضيف إلى اسمك إلا أحبّ الخلق إليك، فقال الله عزّ وجلّ: صدقت يا آدم إنّه لأحبّ الخلق إليّ، وإذا سألتني بحقه فقد غفرت ولولا محمد ما خلقتك. (٣)

١. الروم: ٤٧.

٢. سنن ابن ماجه: ١/٢٥٦ رقم ٧٧٨، باب المساجد؛ مسند أحمد: ٣/٢١.

٣. دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي: ٥/٤٨٩، دار الكتب العلمية.



ج. روى الطبراني بسنده عن أنس بن مالك أنه لما ماتت فاطمة بنت أسد حفروا قبرها، فلما بلغوا اللحد حفر رسول الله بيده وأخرج ترابه بيده، فلما فرغ دخل رسول الله فاضطجع فيه، وقال: الله الذي يحيي ويميت وهو حي لا يموت اغفر لأمي فاطمة بنت أسد ولقنها حبتها، ووسع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي، فانك أرحم الراحمين.<sup>(١)</sup>

إلى هنا تم البحث عن أقسام التوسل الثلاثة وعرفت أن الجميع يدعمه الكتاب والسنة وتصور أن التوسل بغيره سبحانه تأليه وعبادة لغيره قد عرفت بطلانه وذلك لوجهين:

الوجه الأول: لو كان التوسل بدعاء النبي ﷺ وذاته أو حقه شركاً يلزم أن يكون كل توسل كذلك حتى التوسل بالغير في الأمور العادية مع أنه باطل بالضرورة، لأن الجميع من قبيل التوسل بالأسباب، عادية كانت أو غير عادية، طبيعية كانت أو غير طبيعية.

الوجه الثاني: قد عرفت في تعريف العبادة أنه الخضوع أمام الغير بما هو إله أو رب أو مفوض إليه أموره سبحانه، وليس واحد من هذه القيود متحققاً في التوسل بالأنبياء والصالحين والشهداء بل يتوسل بهم بما اتهم عباد مكرمون يستجاب دعاؤهم عند الله سبحانه، أو أن

١. معجم الطبراني الأوسط: ٣٥٦؛ حلية الأولياء: ٣/١٢١؛ مستدرک الحاكم:

لذواتهم وحقوقهم منزلة عند الله، فالتوسل بهم يثير بحار رحمته.

كيف يكون التوسل بنبي التوحيد ﷺ شركاً مع أنه يتوسل به بما  
أنه مكافح للشرك ومقوض لدعائمه؟

#### د. التوسل بدعاء النبي ﷺ و الصالحين بعد رحيلهم

من أقسام التوسل الرائجة بين المسلمين هو التوسل بدعاء  
النبي ﷺ أو الصالحين بعد رحيلهم .

ولكن ثمة سؤالاً يطرح نفسه وهو:

إن التوسل بدعاء الغير إنما يصح إذا كان الغير حياً يسمع  
دعاءك ويستجيب لك ويدعو الله سبحانه لقضاء وطرك ونجاح  
سؤالك، أما إذا كان المستغاث ميتاً انتقل من هذه الدنيا فكيف يصح  
التوسل بمن انتقل إلى رحمة الله وهو لا يسمع؟

والجواب: إن الموت - حسب ما يوحى إليه القرآن والسنة النبوية  
- ليس بمعنى فناء الإنسان وانعدامه، بل معناه الانتقال من دار إلى دار  
وبقاء الحياة بنحو آخر والذي يعبر عنه بالحياة البرزخية.

وتدل على بقاء الحياة آيات من الذكر الحكيم تقتصر على بعضها:

### الآية الأولى:

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتٌ بَلْ أحياءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾. (١)

وقد كان المشركون يقولون: إن أصحاب محمد يقتلون أنفسهم في الحروب دون سبب، ثم يقتلون ويموتون فيذهبون، فوافي الوحي رداً عليهم بأنه ليس الأمر على ما يقولون، بل هم أحياء وإن كان المشركون وغيرهم لا يدركون ذلك.

### الآية الثانية

قوله تعالى: ١. ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتاً بَلْ أحياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾.

٢. ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

٣. ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. (٢)

١. البقرة: ١٥٤.

٢. آل عمران: ١٦٩-١٧١.

والآيات هذه صريحة في بقاء الأرواح بعد مفارقتها الأبدان، وبعد انفكاك الأجسام و بلاها، كما يتضح ذلك من الإمعان في المقاطع الأربعة التالية:

١. ﴿أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾.

٢. ﴿يُرْزَقُونَ﴾.

٣. ﴿فَرِحِينَ﴾.

٤. ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

والمقطع الثاني يشير إلى التنعم بالنعم الإلهية، والثالث والرابع يشير إلى النعم الروحية والمعنوية، وفي الآية دلالة واضحة على بقاء الشهداء بعد الموت إلى يوم القيامة.

وقد نزلت الآية: إِمَّا فِي شُهَدَاءِ بَدْرٍ وَكَانُوا أَرْبَعَةَ عَشَرَ رَجُلًا ثَمَانِيَةً مِنَ الْأَنْصَارِ وَسِتَّةَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، وَإِمَّا فِي شُهَدَاءِ أُحُدٍ وَكَانُوا سَبْعِينَ رَجُلًا، أَرْبَعَةَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ: حمزة بن عبد المطلب، ومصعب بن عمير، وعثمان بن شماس، وعبد الله بن جحش وسائرهم من الأنصار، وعلى قول نزلت في حق كلتا الطائفتين.

### الآية الثالثة

قوله سبحانه: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ \* اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ \* وَمَالِيَ لَا

أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ \* ءَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ  
الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنْقِذُونِ \* إِنِّي إِذَا لَفِي  
ضَلَالٍ مُبِينٍ \* إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ \* قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا  
لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ \* بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ \* وَمَا  
أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ \* إِنْ  
كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿١١﴾

اتفق المفسرون على أن الآيات نزلت في رسل عيسى عليه السلام ، وقد  
نزلوا بأنطاكيا داعيين أهلها إلى التوحيد وترك عبادة غيره سبحانه ،  
فعارضهم من كان فيها بوجوه مذكورة في نفس السورة .

فبينما كان القوم والرسل يتحاجون إذ جاء رجل من أقصى  
المدينة يدعوهم إلى الله سبحانه وقال لهم :

إتبعوا معاشر الكفار من لا يطلبون منكم الأجر ولا يسألونكم  
أموالكم على ما جاءوكم به من الهدى ، وهم مهتدون إلى طريق  
الحق ، سالكون سبيله ، ثم أضاف قائلاً :

ومالي لا أعبد الذي فطرني وأنشأني وأنعم عليّ وهداني وإليه  
ترجعون عند البعث ، فيجزيكم بكفركم أتأمروني أن أتخذ آلهة من  
دون الله مع أنهم لا يغنون شيئاً ولا يردون ضرراً عني ، ولا تنفعني  
شفاعتهم شيئاً ولا ينقذونني من الهلاك والضرر ، وعندما مهد السبيل

إلى إبطال مزاعم المشركين وبيان سخافة منطقتهم، فعندئذ خاطب الناس أو الرسل بقوله: ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُون﴾ فسواء أكان الخطاب للمشركين أو للرسل فإذا بالكفار قد هاجموا فرجموه حتى قتل.

ولكنه سبحانه جزاه بالأمر بدخول الجنة، بقوله: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ ثم هو خاطب قومه الذين قتلوه، بقوله: ﴿قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين.

ثم إنه سبحانه لم يمهل القتالين طويلاً حتى أرسل جنداً من السماء لإهلاكهم، يقول سبحانه: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون.

أي: كان إهلاكهم عن آخرهم بأيسر أمر، وهي صيحة واحدة حتى هلكوا بأجمعهم، فإذا هم خامدون ساكتون.

ودلالة الآية على بقاء النفس وإدراكها وشعورها وإرسالها الخطاب إلى من في الحياة الدنيا من الوضوح بمكان، حيث كان دخول الجنة: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ والتمني ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي﴾ كان قبل قيام الساعة، والمراد من الجنة هي الجنة البرزخية دون الأخروية.

إلى هنا تم بيان بعض الآيات الدالة على بقاء أرواح الشهداء

الذين بذلوا مهجهم في سبيل الله . وثمة طائفة من الآيات تدل على بقاء أرواح الكفار بعد انتقالهم عن هذه الدنيا ، مقترنة بألوان العذاب ، وهناك طائفة أخرى من الآيات تدل على بقاء الروح بعد رحيل الإنسان المؤمن والكافر من هذه الدار ، ولنذكر هذه الآيات على وجه الإيجاز:

١ . ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ .<sup>(١)</sup>

تدل الآية بوضوح على أن آل فرعون يُعرضون على النار قبل قيام الساعة غدوًّا وعشيًّا ، كما أنهم بعد قيامها يُدخلون أشدَّ العذاب ، فعذابهم قبل الساعة غير عذابهم بعدها ، وهو دليل صريح على حياة تلك الطغمة .

٢ . ﴿مِمَّا خَطَبْتَهُمْ أَغْرَقُوا فَأَدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ .<sup>(٢)</sup>

تدل الآية على أن قوم نوح اغرقوا أولاً فادخلوا ناراً ، ولم يجدوا لأنفسهم أنصاراً وليست هذه النار ، نار يوم القيامة بشهادة أنه سبحانه يقول : ﴿فادخلوا ناراً﴾ وهو يدل على تحقق الدخول بلا فاصل زمني بعد الغرق ولو أُريد نار يوم الساعة لكان الأنسب أن يقول «فيدخلون ناراً» .

٣. ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ\* لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (١)

إن الكافر حينما يواجه الموت يجد مستقبل حياته مظلماً وكأنه يشاهد العذاب الأليم بألم عينه بعد موته فيتمنى الرجوع إلى الحياة الدنيا، فيجاب بـ ﴿كَلَّا﴾ وما يشاهده ليس إلا عذاباً برزخياً لا عذاباً أخروبياً ولذلك يقول سبحانه ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ .

هذه الآيات وغيرها تعرب عن بقاء الحياة بعد الانتقال عن نشأة الدنيا، وإن أطلق الموت عليه فلأنما هو باعتبار انتهاء أمد حياته الدنيوية واندثار بدنه وأما روحه ونفسه فهي باقية بنحو آخر تتنعم أو تعذب .

### الصلة بين الحياتين: الدنيوية والبرزخية

ربما يمكن أن يقال: إن الآيات دلت على كون الشهداء والأولياء بل الكفار أحياء، ولكن لا دليل على وجود الصلة بين الحياتين وأنهم يسمعون كلامنا، وهذا هو الذي نظرته في المقام ونقول:

دَلَّ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ عَلَىٰ وَجُودِ الصَّلَةِ بَيْنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالْبَرْزَخِيَّةِ بِمَعْنَىٰ أَنَّ الْأَحْيَاءَ بِالْحَيَاةِ الْبَرْزَخِيَّةِ يَسْمَعُونَ كَلَامَنَا



ويشاهدون أفعالنا، وليسوا بمنقطعين تمام الانقطاع عن الحياة الدنيوية وإليك شواهد من الآيات:

١. قال سبحانه: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَائِمِينَ﴾ فتولّى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربّي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين<sup>(١)</sup>.

نزلت الآيات في قصة النبي صالح حيث دعا قومه إلى عبادة الله وترك التعرض لمعجزته (الناقة) وعدم مسّها بسوء، ولكنهم بدل ذلك فقد عقروا الناقة وعتوا عن أمر ربّهم فعمّهم العذاب فأصبحوا في دارهم جائمين، فعند ذلك عاد النبي صالح يخاطبهم وهم هلكى، بقوله: ﴿فتولّى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربّي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين﴾.

وقد صدر الخطاب من النبي صالح ﷺ بعد هلاكهم وموتهم، بشهادة قوله: ﴿فتولّى عنهم﴾ في صدر الخطاب المصدرة بالفاء المشعرة بصدور الخطاب عقيب هلاك القوم.

فلو لم تكن هناك صلة بين الحياتين لما خاطبهم النبي صالح بهذا الخطاب.

٢. قال سبحانه: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ

جَائِمِينَ \* الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْتَوِا فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا  
كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ \* فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ  
رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿١﴾

وقد وردت هذه الآية في حق النبي شعيب عليه السلام ودلالة الآية  
كدلالة سابقتها، حيث يخاطب شعيب قومه بعد هلاكهم، فلو  
كانت الصلة مفقودة ولم يكن الهالكون بسبب الرجفة سامعين  
لخاطب نبيهم، فما معنى خطابه لهم؟

٣. قال سبحانه: ﴿وَسْئَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا  
أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾. (٢)

ترى أنه سبحانه يأمر النبي صلى الله عليه وسلم بسؤال الأنبياء الذين بعثوا قبله  
وأما مكان السؤال فلعله كان في ليلة الاسراء.

### السنة الشريفة والصلة بين الحياتين

ثمة روايات متضافرة بل متواترة تدل على وجود الصلة بين  
الحياتين، وجمع هذه الروايات بحاجة إلى تأليف كتاب مفرد.  
ونكتفي هنا بالحديث المتفق عليه بين المسلمين وهو تكليم  
النبي صلى الله عليه وسلم أهل القلب.

١. الأعراف: ٩١-٩٣.

٢. الزخرف: ٤٥.

لقد انتهت معركة بدر بانتصار المسلمين وهزيمة المشركين قتل منهم قرابة سبعين من صناديدهم وساداتهم وطرحت جثث قتلاهم في القليب، فوقف النبي ﷺ يخاطبهم واحداً تلو الآخر، ويقول: يا أهل القليب، يا عتبة بن ربيعة، ويا شيبة بن ربيعة، يا أمية بن خلف، يا أباجهل، وهكذا عدّ من كان منهم بالقليب، وقال: هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟! فأتى قد وجدت ما وعدني ربي حقاً.

فقال له أصحابه: يا رسول الله أتنادي قوماً موتى؟!؟

فقال ﷺ: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني.

يقول ابن هشام بعد هذا النقل: إن النبي ﷺ قال: يا أهل القليب بثس عشيرة النبي كنتم لئبيكم كذبتموني وصدقتني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وقاتلتموني ونصرني الناس. ثم قال: هل وجدتم ما وعدكم ربي حقاً؟!؟<sup>(١)</sup>

أخرج البخاري: عن نافع أن ابن عمر أخبره، قال: أطلع النبي ﷺ على أهل القليب، فقال: وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟! فقيل له: ندعوا أمواتاً، فقال: ما أنتم بأسمع منهم، ولكن لا يجيبون.<sup>(٢)</sup>

١. السيرة النبوية: ١/٦٤٩؛ السيرة الحلبية: ٢/١٧٩ و١٨٠.

٢. صحيح البخاري: ٩: ٩٨، باب ما جاء في عذاب القبر من كتاب الجنائز.

وأخيراً نقول: إن جميع المسلمين - على الرغم من الخلافات المذهبية بينهم في فروع الدين - يسلمون على رسول الله ﷺ في الصلاة عند ختامها ويقولون:

«السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته».

وقد أفتى الإمام الشافعي وآخرون بوجوب هذا السلام بعد التشهد، وأفتى الآخرون باستحبابه، لكن الجميع متفقون على أن النبي ﷺ علمهم السلام وأن سنة النبي ﷺ ثابتة في حياته وبعد وفاته. (١)

فلو انقطعت صلتنا بالنبي ﷺ بوفاته، فما معنى مخاطبته والسلام عليه يومياً؟!

### سؤال و جواب

لو كانت الصلة بيننا وبين من فارقوا الحياة موجودة فما معنى قوله سبحانه: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ (٢) وقوله سبحانه: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَن فِي الْقُبُورِ﴾. (٣)

والجواب: بملاحظة الآيات السابقة هو أن المراد من الإسماع، الإسماع المفيد، ومن المعلوم أن سماع الموتى أو من في القبور لا يجدي

١. تذكرة الفقهاء: ٣/٣٣٣، المسألة ٢٩٤؛ الخلاف: ١/٤٧.

٢. الروم: ٥٢.

٣. فاطر: ٢٢.

نفعاً بعدما ماتوا كافرين، وإلا فهذا هو النبي ﷺ، يقول: «الميت يسمع قرع النعال» في حديث أخرجه البخاري عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ قال: إنَّ العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه حتى أنه ليسمع قرع نعالهم أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان له ما كنت تقول في هذا الرجل محمد ﷺ فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله إلى آخر ما نقل.<sup>(١)</sup>

وقد مرَّ أنَّ النبي ﷺ كان يزور القبور، و يخرج آخر الليل إلى البقيع، فيقول: السلام عليكم دار قوم مؤمنين وأتاكم ما توعدون، غداً ما أجلون وأنا إن شاء الله بكم لاحقون، اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد.<sup>(٢)</sup>

اتفق المسلمون على تعذيب الميت في القبر، أخرج البخاري عن ابنة خالد بن سعيد بن العاص أنها سمعت النبي ﷺ وهو يتعوذ من عذاب القبر، وأخرج عن أبي هريرة كان رسول الله ﷺ يدعو: اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر و من عذاب النار.<sup>(٣)</sup>

كل ذلك يدل على أن المراد من نفي الاسماع هو الاسماع المفيد.

تحقيقاً لقوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ \* لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا

١. البخاري: الصحيح: ٢/ ٩٠، باب الميت يسمع خفق النعال.

٢. صحيح مسلم: ٣/ ٦٣، باب ما يقال عند دخول القبور من كتاب الجنائز.

٣. البخاري: الصحيح: ٢/ ٩٩، باب التعوذ من عذاب القبر من كتاب الصلاة.

وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١١﴾ حيث إن الآية صريحة في رد دعوة الكفار حيث طلبوا من الله سبحانه أن يرجعهم إلى الدنيا حتى يعملوا صالحاً، فيأتيهم النداء «بكلاً» فيكون تمنيمهم بلا جدوى ولا فائدة كما أن سماع الموتى كذلك، لا أنهم لا يسمعون أبداً، إذ هو مخالف لما مر من صريح الآيات والروايات.

### هـ طلب الشفاعة

اتفقت الأمة الإسلامية على أن الشفاعة أصل من أصول الإسلام نطق به الكتاب والسنة النبوية، وأحاديث العترة الطاهرة، ولم يخالف في ذلك أحد من المسلمين وإن اختلفوا في بعض خصوصياتها. وأجمع العلماء على أن النبي ﷺ أحد الشفعاء يوم القيامة، إلا أن الكلام في المقام في طلب الشفاعة من النبي ﷺ فهل يجوز أن نقول: يا رسول الله اشفع لنا عند الله، كما يجوز أن نقول: اللهم شفّع نبينا محمداً ﷺ فينا يوم القيامة، أو لا يجوز؟ تظهر حقيقة الحال من خلال الوجه التالية:

الوجه الأول: أن حقيقة الشفاعة ليست إلا دعاء النبي ﷺ أو الولي ﷺ في حق المذنب وإذا كانت هذه حقيقتها فلا مانع من طلبها من الصالحين، لأن غاية هذا الطلب هو طلب الدعاء، فلو قال

القائل: «يا وجهاً عند الله اشفع لنا عند الله» يكون معناه ادع لنا عند ربك فهل يرتاب في جواز ذلك مسلم؟

والدليل على أن الشفاعة هو طلب الدعاء، ما أخرجه مسلم، عن عبد الله بن عباس، أنه قال: سمعت رسول الله يقول: ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئاً إلا شفّعهم الله فيه.<sup>(١)</sup> أي قبل شفاعتهم فيه وليست شفاعتهم إلا دعاؤهم له بالغفران.

وعلى هذا فلا وجه لمنع الاستشفاع بالصالحين إذا كان مآله إلى طلب الدعاء.

الوجه الثاني: أن سيرة المسلمين تكشف عن جواز طلب الشفاعة في عصر النبي ﷺ وبعده.

أخرج الترمذي في سننه عن أنس قال: سألت النبي ﷺ أن يشفع لي يوم القيامة، فقال: أنا فاعل، قال: قلت يا رسول الله فأين أطلبك؟ فقال: اطلبني أول ما تطلبني على الصراط.<sup>(٢)</sup>

نقل ابن هشام في سيرته: أنه لما توفي رسول الله ﷺ كشف أبو بكر عن وجهه وقبله، وقال: بأبي أنت وأمي أما الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها، ثم لن تصيبك بعدها موتة أبداً.<sup>(٣)</sup>

١. صحيح مسلم: ٥٣/٣، باب من صلى عليه أربعون شفّعوا فيه من كتاب الجنائز.

٢. سنن الترمذي: ٦٢١/٤، كتاب صفة القيامة.

٣. السيرة النبوية: ٦٥٦/٢، ط عام ١٣٧٥ هـ وهو يدل على وجود الصلة بين الاحياء

والأموات وقد جتنا به لتلك الغاية

وقال الرضي في نهج البلاغة: لما فرغ أمير المؤمنين عليه السلام من تفصيل النبي صلى الله عليه وآله قال كلاماً وفي آخره: «بأبي أنت وأمي طبت حياً وطبت ميتاً... أذكرنا عند ربك». <sup>(١)</sup>

إنّ كلام الإمام يدلّ على عدم الفرق في طلب الشفاعة من الشفيع في حين حياته وبعد وفاته، وقد كان الصحابة يطلبون الدعاء من النبي صلى الله عليه وآله بعد وفاته.

وتصور أنّ طلب الشفاعة من الشفيع الواقعي شرك تصور خاطئ، فإنّ المراد من الشرك في المقام هو الشرك في العبادة، وقد علمت أنّ مقومه هو الاعتقاد بالوهية المدعوّ أو ربوبيته أو كون مصير العبد بيده، وليس في المقام من ذلك شيء.

إنّ طالب الشفاعة من الشفعاء الصالحين - الذين أذن الله لهم بالشفاعة - إنّما يعتبرهم عباداً لله مقربين لديه، وجهاء فيطلب منهم الدعاء، وليس طلب الدعاء من الميت عبادة له، وإلّا لزم كون طلبه من الحي عبادة لوحدة واقعية العمل.

وقياس طلب الشفاعة من النبي صلى الله عليه وآله يطلب الوثنيين الشفاعة من الأصنام قياس مع الفارق، لأنّ المشركين كانوا على اعتقاد بالوهية معبوداتهم وربوبيتها، وأين هذا من طلب الموحد الذي لا يراه إلهاً ولا ربّاً ولا من بيده مصير حياته؟! وإنّما تعتبر الأعمال بالنيات لا بالصور والظواهر.



## انتفاع الموتى بأعمال الأحياء

ينتفع الإنسان بالإيمان إذا انضم إليه العمل الصالح ولا ينفع إيمان مجرد عن العمل، ولأجل ذلك قرن الله سبحانه العمل الصالح إلى جانب الإيمان في أكثر الآيات، وقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾<sup>(١)</sup>. فالاعتماد على الإيمان مجرداً عن العمل فعل الحمقى.

وهذا هو الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام يؤكد في خطبته على العمل، إذ يقول: «فاليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل»<sup>(٢)</sup>. ويقول في خطبة أخرى: «ألا وإن اليوم المضمار وغداً السباق والسبقة الجنة والغاية النار، أفلا تائب من خطيئته قبل منيته، ألا عامل لنفسه قبل يوم يؤسه»<sup>(٣)</sup>.

### انتفاع الإنسان بعمله وعمل غيره

كما أن الإنسان ينتفع بعمل نفسه كصلاته و صومه كذلك ينتفع

١. العصر: ٣.

٢. نهج البلاغة: الخطبة ٤٢.

٣. نهج البلاغة: الخطبة ٢٨.

بعمل غيره إذا كان له دور فيه كما إذا خَلَّفَ أعمالاً خيرية يستفيد منه الناس كصدقة جارية أجراها أو إذا ترك علماً ينتفع به أو ربى ولداً صالحاً يدعو له، فهو ينتفع بصدقاته وعلومه ودعاء ولده.

ونظيره الجسر الذي بناه، والنهر الذي أجراه، والمدرسة التي شيدها، والطريق الذي عبده، فقد ينتفع به لأنها أعمال قام بها بنفسه باقية بعد موته.

أخرج مسلم في صحيحه أنّ رسول الله ﷺ، قال: «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»<sup>(١)</sup>.

وأخرج مسلم، عن جرير بن عبد الله، قال: قال رسول الله : من سنَّ في الإسلام سنةً حسنةً فعمل بها بعده كتب له مثل أجر من عمل بها ولا ينقص من أجورهم شيء، ومن سنَّ في الإسلام سنةً سيئةً فعمل بها بعده كتب عليه مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيء<sup>(٢)</sup>.

ففي هذا المورد ينتفع الميت بعد موته بعمل الغير لقيامه في ترغيب ذلك الغير وتشويقه إلى فعله، فإن من سنَّ سنةً حسنةً كأنه يدعو الغير بعمله هذا إلى الاقتداء به.

١. صحيح مسلم: ٧٣/٥، باب وصول ثواب الصدقات إلى الميت من كتاب الهبات.

٢. صحيح مسلم: ٦١/٨، باب «من سنَّ سنةً حسنةً أو سيئةً» من كتاب العلم.

إنها الكلام فيما إذا لم يكن للميت نصيب في العمل، فهل يصل ثواب عمل الغير إليه إذا أهدى صاحب العمل ثوابه إليه ؟

فالظاهر من الكتاب والسنة أنه سبحانه بعميم فضله وواسع جوده يوصل ثواب عمل الغير إلى الميت فيما إذا قام الغير بعمل صالح نيابة عنه وبعث ثوابه إليه، ويدل عليه لفيف من الآيات والروايات.

### ١ . استغفار الملائكة للمؤمنين

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ (١).

وقال تعالى :

﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ بِتَقَطُّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِنْ اللَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٢).

### ٢ . دعاء المؤمنين للسابقين إلى الإيمان

﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (٣).

فلو لم يكن لاستغفار الملائكة ودعاء المؤمنين للتابعين سبيل الله مفيداً، فما معنى نقله سبحانه عنهم كما عرفت .

وأما الروايات فحدّث عنها ولا حرج .

١ . أخرج مسلم، عن عائشة أنّ رسول الله ﷺ قال: من مات وعليه صيام صام عنه وليه. <sup>(١)</sup>

٢ . وأخرج أيضاً عن ابن عباس، قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله إنّ أمي ماتت وعليها صوم شهر أفأقضي عنها، قال: نعم، فدين الله أحقّ أن يقضى. <sup>(٢)</sup>

٣ . روى سعد بن عبادة، أنّه قال لرسول الله ﷺ: إنّ أمي ماتت وعلينا نذر أفيجزى عنها أن أعتق عنها، قال: اعتق عن أمك. <sup>(٣)</sup>

٤ . روى أبو هريرة، أنّ رجلاً قال للنبي ﷺ: إنّ أبي مات وترك مالاً ولم يوص، فهل يكفر عنه ان أتصدق عنه؟ قال: نعم. <sup>(٤)</sup>

٥ . روى سعد بن عبادة، أنّه قال: يا رسول الله، إنّ أم سعد ماتت، فأبي الصدقة أفضل؟ قال: الماء. قال: فحفر بشراً، وقال: هذه لأم سعد. <sup>(٥)</sup>

٢٠١ . صحيح مسلم: ٣/١٥٥-١٥٦، باب قضاء الصيام عن الميت، وفي هذا الباب روايات تركنا ذكرها للاختصار.

٣ . سنن النسائي: ٦/٢٥٣، باب فضل الصدقة على الميت.

٤ . صحيح مسلم: ٥/٧٣، باب وصول ثواب الصدقات إلى الميت من كتاب الهبات.

٥ . سنن أبي داود: ٢/١٣٠ برقم ١٦٨١، باب «في فضل سقي الماء».

واللام في قوله : هذه لأم سعد هي لام الاختصاص، نظير قوله سبحانه : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ ﴾<sup>(١)</sup> وهي دالة على الجهة التي تصرف فيها الصدقة، وليست من قبيل اللام الداخلة على لفظ الجلالة في قولنا: نذرت لله، فإن اللام في هذه الجملة للتقرب وفي المقام لبيان المحل.

وقد اقتصرنا بالقليل من الكثير فمن أراد الوقوف على مصادر الروايات فليرجع إلى المصدر أدناه.<sup>(٢)</sup>

وعلى ذلك سارت المذاهب الفقهية الأربعة حيث يفتون بانتفاع الميت بعمل الحى حتى إذا لم يوص به ولم يكن له في السعي نصيب.

فهذه الروايات والفتاوى تثبت ضابطة كلية وهي وصول ثواب كل عمل قربي إلى الميت إذا أوتي به نيابة عنه سواء أكان من قبيل الصوم والحج أو غيرهما.

وعلى هذا يعلم صحة عمل المسلمين حيث يقومون بأعمال حسنة صالحة ربما أهدوا ثوابها إلى أحبائهم وأعزتهم الموتى وهو أمر يوافق عليه الكتاب والسنة، فما يقوم به المسلمون لموتاهم من إهداء ثواب الأعمال الصالحة لهم، أو ما يفعلونه عند قبور الأنبياء والأولياء

١. التربة: ٦٠.

٢. لاحظ للوقوف على مصادر هذه الروايات: صحيح مسلم: ٥/٧٣-٧٨، كتاب النذر؛ سنن النسائي: ٦/٢٥١ فضل الصدقة على الميت.

من إطعام الطعام وتسبيل الماء بنية أن يصل ثوابها إليهم إنما يقتدون فيها بسعد بن عبادة الذي سأل النبي ﷺ عن حكم الصدقة عن أمه أينفعها؟ فقال ﷺ: نعم، فقال فأبي الصدقة أفضل؟ قال: الماء فحضر بئراً، وقال: هذه لأم سعد.

فهم في هذا سعديون لا يريدون عبادة الموتى، بل يريدون إيصال الثواب إليهم كما فعل سعد.

### النذر لأهل القبور

النذر عبارة عن إلزام الإنسان نفسه بالقيام بأداء عمل إذا قضيت حاجته كأن يقول: لله عليّ أن أختم القرآن إذا نجحت في الامتحان، هذا هو النذر الشرعي ويعتبر أن يكون النذر لله سبحانه ولا يجوز لغيره .

وربما يلتزم في ضمن النذر إهداء ثواب عمله إلى المقربين له كالأب والأم أو الأنبياء والأولياء، فيقول: نذرت لله أن أختم القرآن واهدي ثوابه لفلان. واللام الداخلة على لفظ الجلالة غير اللام الداخلة على لفظة «فلان» فاللام الأولى للغاية أي لغاية التقرب إلى الله سبحانه، واللام الثانية لبيان موضع الانتفاع.

هذا هو المتعارف بين المسلمين يندرون عملاً لله ثم يلتزمون بإهداء ثوابه لأحد أولياء الله وعباده الصالحين.

وربما يختصرون في العبارة ويقولون : هذه - الشاة - منذورة للنبي ﷺ ، والمراد هو جهة انتفاعه ، والقرآن الكريم مشحون بكلام الاستعمالين .

قال سبحانه حاكياً عن امرأة عمران : ﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾ <sup>(١)</sup> فاللام في هذه الآية نظير قولنا : «صليت لله ونذرت لله» .

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ ﴾ <sup>(٢)</sup> واللام للفقراء بمعنى الانتفاع ، نظير قولنا عند الاختصار : هذا للنبي ﷺ أو للإمام ﷺ . وقد مضى أن سعد بن عباد لما حفر بئراً قال : هذه لأم سعد .

وبذلك ظهر أنه لا مانع من النذر للأولياء والصالحين ، على ما عرفت من تفسيره .

ولأجل إيضاح الحال نأتي بكلام بعض المفكرين وعلماء الإسلام .

يقول الخالدي : إن المسألة تدور مدار نيات الناظرين ، وإنما الأعمال بالنيات فإن كان قصد الناظر الميت نفسه والتقرب إليه بذلك لم يجز ، قولاً واحداً ، وإن كان قصده وجه الله تعالى وانتفاع الأحياء - بوجه

١ . آل عمران : ٣٥ .

٢ . التوبة : ٦٠ .

من الوجوه - به وثوابه لذلك المنذور له سواء عين وجهاً من وجوه الانتفاع أو أطلق القول فيه، وكان هناك ما يطرد الصرف فيه في عرف الناس أو أقرباء الميت، أو نحو ذلك - ففي هذه الصورة يجب الوفاء بالنذور.<sup>(١)</sup>

وقال العزامي في كتاب «فرقان القرآن»: «... ومن استخبر حال من يفعل ذلك من المسلمين، وجدهم لا يقصدون بذبائهم ونذورهم للأموال - من الأنبياء والأولياء - إلا الصدقة عنهم و جعل ثوابها إليهم، وقد علموا أن إجماع أهل السنة منعقد على أن صدقة الأحياء نافعة للأموال واصله إليهم، والأحاديث في ذلك صحيحة مشهورة.<sup>(٢)</sup>

أخرج أبو داود عن ميمونة أن أباها قال لرسول الله ﷺ:

يا رسول الله أني نذرت إن وُلد لي ذكر أن أنحر على رأس «بؤانة» في عقبه من الثنايا، عدّة من الغنم.

قال الراوي عنها: لا أعلم إلا أنها قالت: خمسين.

فقال رسول الله ﷺ: هل من الأوثان شيء؟

قال: لا.

قال: أوف بما نذرت به لله.<sup>(٣)</sup>

١. صلح الاخوان: للمخالدي: ١٠٢ وما بعده.

٢. فرقان القرآن: ١٣٣.

٣. سنن أبي داود: ٨١/٢.



تجد أن النبي ﷺ يؤكد السؤال عن وجود الأصنام في المكان الذي تذبح فيه الذبائح أن هذا دليل على أن النذر الحرام هو النذر للأصنام حيث جرت عادة أهل الجاهلية على ذلك كما قال تعالى:

﴿... وَمَا ذَبِحَ عَلَى النُّصُبِ ... ذَلِكَمُ فِسْقٌ﴾. (١)

وكل من وقف على أحوال الزائرين للعبات المقدسة ومراقب أولياء الله الصالحين يجد أنهم ينذرون الله تعالى ولرضاه، ويذبحون الذبائح باسمه عز وجل بهدف انتفاع صاحب القبر بشواها وانتفاع الفقراء بلحومها.

## التبرك بأثار الأنبياء والصالحين

جرت سنة الله الحكيمة على إجراء فيضه إلى الناس عن طريق الأسباب العادية، كما هو المشاهد لكل واحد منا إلا أنه سبحانه ربما يُجري فيضه عن طريق علل غير مألوفة أو خارقة للعادة لغايات مختلفة، فتارة تكون الغاية هي الاعجاز واثبات النبوة وأخرى تكون هي اجلال الشخص وتكريمه.

أما الأول، فكالמעاجز التي يأتي بها الأنبياء بإذن الله سبحانه في مقام الدعوة والتحدّي، والقرآن يعجّ بهذا النوع من المعجزات. وأما الثاني: فنذكر منه نموذجين:

قال سبحانه: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (١).

وقال سبحانه: ﴿وَهَرَبْنَا بِاللَّيْلِ مِنَ الْكُفَّارِ لِقَابِ رَبِّنَا فَأَخْرَجْنَا مِنْكُمْ الْطَّاغُوتَ وَأَخَذْنَا بِذُنُوبِكُمْ إِنَّا فَاعِلُونَ لِبِغْيَاتِكُمْ بِرَبِّنَا عِلْمًا وَنُجْحًا﴾ (٢).

وما ورد في هذه الآيات من ظهور فيضه سبحانه على خاصة أوليائه إنما هو من باب الكرامة لا الإعجاز، فلم تكن مريم عليها السلام مدعية للنبوة حتى تتحدى بهذه الكرامة، بل كان تفضلاً من الله سبحانه عليها في فترات متلاحقة.

ويقرب مما ذكرنا قوله سبحانه: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقُوهُ عَلِيَّ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا...﴾ \* فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقِيَهُ عَلَيَّ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ﴿١﴾.

ومما لا شك فيه أن يوسف لم يكن مدعياً للنبوة أمام إخوته حتى يتحدى بهذه الكرامة، وإنما كان تفضلاً من الله عن هذا الطريق لإعادة بصر أبيه يعقوب.

هذه الآيات توقفنا على أنه سبحانه: يُجْرِي فِيضَهُ عَلَيَّ عِبَادَهُ عَنْ طَرِيقَيْنِ فَتَارَةً عَنْ طَرِيقِ الْأَسْبَابِ الْعَادِيَةِ، وَأُخْرَى عَنْ طَرِيقِ أَسْبَابٍ غَيْرِ عَادِيَةٍ.

وأما تأثير تلك الأسباب غير العادية كالأَسْبَابِ الْعَادِيَةِ فَكَلَّهَا بِإِذْنِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ.

وعلى ضوء ذلك كان المسلمون يتبركون بأثار رسول الله ﷺ حيث يتبركون بشعره وبفضل وضوئه وثيابه وأنيته ومس جسده الشريف، إلى غير ذلك من آثاره الشريفة التي رواها الأخيار

عن الأخيار.

فصار التبرك بها سنة الصحابة واقتدى آثارهم من نهج نهجهم من التابعين والصالحين.

قال ابن هشام في الفصل الذي عقده لصلح الحديبية: إن قريشاً بعثت عروة بن مسعود الثقفي إلى رسول الله ﷺ فجلس بين يديه وبعد ما وقف على نية الرسول من خروجه إلى مكة رجع إلى قومه وأخبرهم بما دار بينه وبين الرسول ﷺ، ثم قال: إن محمداً لا يتوضأ إلا وابتدر أصحابه بهاء وضوئه، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه، ثم قال: يا معشر قريش لقد رأيت كسرى في ملكه، وقبصر في ملكه، والنجاشي في ملكه، وأني والله ما رأيت ملكاً في قومه قط مثل محمد في أصحابه ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً فَرَوْا رأيكم.<sup>(١)</sup>

وقد ألف غير واحد من علماء الإسلام ما قام به الصحابة من التبرك بآثار النبي ﷺ نذكر عناوينها:

التبرك بتحنيك الأطفال.

التبرك بالمسح والمس.

التبرك بفضل وضوئه وغسله.

التبرك بسؤر شرابه وطعامه.

إنّ تبرك الصحابة لم يقتصر على ذلك بل كانوا يتبركون بماء أدخل فيه يده المباركة، وبماء من الآنية التي شرب منها، وبشعره، وعرقه، وظفروه، والقدح الذي شرب منه، وموضع فمه، ومنبره، والدنانير التي أعطهاها، وقبره وجرت عادتهم على التبرك به، ووضع الخد عليه والبكاء عنده.

وقد أُلّف المحقق العلامة محمد طاهر بن عبد القادر كتاباً باسم «تبرك الصحابة»، وهو من علماء مكة المكرمة قال فيه: أجمعت صحابة النبي ﷺ على التبرك بأثار رسول الله والاهتمام في جمعها وهم الهداة المهديون والقدوة الصالحون فيتبركون بشعره ويفضل وضوئه وعرقه وثيابه وآنيته وبمسّ جسده الشريف، وبغير ذلك ممّا عرف من آثاره الشريفة التي صحت به الأخبار عن الأخبار.

وقد وقع التبرك ببعض آثاره في عهده وأقره ولم ينكر عليه، فدلّ ذلك دلالة قاطعة على مشروعيته، ولو لم يكن مشروعاً لنهاى عنه وحذّر منه.

وكما تدل الأخبار الصحيحة وإجماع الصحابة على مشروعيته تدل على قوة إيمان المتبركين وشدة محبتهم وموالاتهم ومتابعتهم للرسول الأعظم ﷺ كقول الشاعر:

أمرّ على الديار ديار ليلى      ولكن حبّ من سكن الديارا<sup>(١)</sup>  
وما حبّ الديار شغفن قلبي

## البدعة والاحتفال بميلاد النبي ﷺ

البدعة في اللغة بمعنى الانشاء والابداع، وأما في مصطلح الفقهاء هو إدخال ما ليس من الدين في الدين، وعدُّ ما ليس من الدين منه، وقد أطبق المسلمون على تحريمه لإطباق الأدلة عليه وإلى المعنى المصطلح يشير صاحب القاموس، ويقول: البدعة: الحدث في الدين بعد الإكمال أو ما استحدث في الدين بعد النبي ﷺ من الأهواء.

فالمعنى الجامع للبدعة هو الافتراء على الله ورسوله ﷺ، ونشر الافتراء بعنوان أنه من الدين، قال سبحانه: ﴿ءَأَلَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾<sup>(١)</sup> فالآية تدل على أن كل ما ينسب إلى الله سبحانه بلا إذن منه فهو أمر محرّم، ومن أدخل في الدين ما ليس من الدين أو لا يعلم أنه منه، فقد افترى على الله.

وقد عدَّ المفتري على الله من أظلم الناس، قال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾<sup>(٢)</sup>.

هذا، ودلت السنة أيضاً على حرمة البدعة، قال رسول الله ﷺ: أما بعد، فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأفضل الهدى هدى محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكلّ محدثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة في النار.

وقد أوضحه ابن حجر العسقلاني بقوله: المحدثات جمع محدثة، والمراد بها ما أحدث وليس له أصل في الشرع، ويسمى في عرف الشرع بدعة، وما كان له أصل يدل عليه الشرع فليس ببدعة، فالبدعة في عرف الشرع مذمومة.<sup>(١)</sup>

والروايات في تحريم البدعة كثيرة اكتفينا بما سبق، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى المصدر المذكور في الهامش.<sup>(٢)</sup>

فإذا كانت البدعة هي الافتراء على الله ورسوله والتلاعب بدينه، وادخال ما ليس من الدين، أو ما لم يُعلم أنه من الدين في الدين، فعلى الباحث المتصلّع تمييز ما ليس ببدعة عن البدعة وإن اشتركا في إطلاق تسمية «البدعة» عليهما، وإليك أقسامها:

الأول: أن يقوم به الإنسان بما أنه من الدين، وهو إما ليس من الدين قطعاً أو يشك أنه من الدين ومع ذلك يدخله فيه وينشره بين الأمة.

وعلى هذا فلو قام أحد بعمل بديع ليس له مثيل، ولكن من دون

١. فتح الباري في شرح صحيح البخاري: ١٣/٢٥٣.

٢. جامع الأصول لابن الأثير: ٩/٥٦٦.

أن ينسبه إلى الدين فهو ليس ببدعة، كالصنائع الجديدة، والألعاب الرياضية، التي ابتدعها الإنسان لتوفير الراحة لنفسه إلى غير ذلك من الفوائد المترتبة عليها.

فهذه الصنائع والألعاب لم تكن في عصر الرسول ولا الصحابة ولا التابعين ولكن الإنسان أبدعها وانشأها دون أن يعزوها إلى الدين، فإذا لا تكون بدعة.

نعم مجرد أنها ليست بدعة لا يكون دليلاً على حليتها بل يستنبط حكمها من جهة الحلية والحرمة من الكتاب والسنة والإجماع والعقل.

فالصنائع والألعاب الرياضية من المحدثات ولكنها حلالان شرعاً لعدم انطباق عنوان محرم عليهما، بخلاف بعض المحدثات كاختلاط النساء والرجال في الحفلات، فهو أمر محدث مُحَرَّم، لانطباق عنوان محرم عليه وهو اختلاط الرجال بالنساء السافرات.

الثاني: ما يبدعه الإنسان وينشئه وليس له نظير في السابق، ولكن يأتي به باسم الدين وله أصل كلي في الشريعة وإن لم ترد الخصوصية فيها. فهذا ما يسمّى بدعة لغة ولا يكون بدعة شرعاً.

أما كونه بدعة لغة فلكونه أمراً جديداً وإنشاء حديثاً في الدين، وأما أنه ليس ببدعة شرعاً، لوجود أصل كلي له فيها مسوغ له، وإليك الأمثلة التالية:

أ. أنّ الدفاع عن بيضة الإسلام وصيانة حدوده من الأعداء أصل



ثابت في القرآن الكريم، قال سبحانه: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾<sup>(١)</sup> وهذا هو الأصل الثابت في الإسلام، وأما كيفية الدفاع فلم يرد فيها دليل خاص، بل أوكله الشارع إلى مقتضيات الزمان فالتزود بالأسلحة الحديثة كالسفن الحربية والطائرات المقاتلة إلى غير ذلك من وسائل الدفاع ليس بدعة، بل تجسيد للأصل الثابت في الشرع أعني: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾، فهذا النوع من التسليح ورد في الشرع أصله وإن لم يرد بخصوصياته.

ب. حث الإسلام على الإحسان إلى اليتامى والمساكين والرفقة بهم والعطف عليهم وحفظ أموالهم بيد أن هذا الأمر الكلي الذي جاء في الشرع له أساليب مختلفة تجاري مقتضيات كل عصر ومصر وإمكانياتهم المتاحة، فاللازم امتثال ما ندب إليه الشرع، أعني: الأصل الكلي، وأما تبين كفيته فمترك إلى المستجدات الزمانية.

ج. ندب الشرع المقدس إلى التربية والتعليم ومكافحة الأمية ولا شك أن لهذا الأمر الكلي أشكالاً وألواناً مختلفة تتبدل حسب تبدل الظروف حيث كانت التربية والتعليم في العصور السابقة تتحقق من خلال الكتابة بالقصب والدواة، وجلس المتعلم للاستماع إلى معلمه، إلا أن ذلك تطور اليوم إلى أساليب جديدة تستخدم فيها الأجهزة المتطورة كالإذاعة والتلفزة والكمبيوتر والاشطرة إلى غيرها من وسائل

التعليم الحديثة.

إنّ الشارع المقدس لا يخالف هذا التطور ولا يمنع من استخدام الأجهزة والأساليب الحديثة، وإنّما أمر بالتعليم والتعلم، وترك اتخاذ الأساليب إلى الظروف والمقتضيات.

ولو كان أصرّ على اتخاذ كيفية خاصة، لفشل في هدفه المقدس ولفقد مبررات خلوده واستمراره، لأنّ الظروف ربما لا تناسب الأداة الخاصة التي يقترحها والكيفية الخاصة التي يجدها.

الثالث: ما إذا قام به إنسان باسم الدين وكان أمراً حديثاً ليس له مثيل في السابق ولم يكن له أصل كلي يعضده ويسوغه ويضفي عليه الشرعية.

فهذه هي البدعة المصطلحة المحرمة على الإطلاق، فمن حاول تغيير الأذان والإقامة بتنقيص أو زيادة أو زاد في الصلاة أو نقص منها ونسب كلّ ذلك إلى الشرع فهو بدعة محرمة.

وبالجملّة من أراد التدخل في الشريعة الإسلامية في عباداتها ومعاملاتها وسياساتها بأن ينسب إليها ما ليس منها أو لم يعلم أنّه منها فقد أبدع وافترى على الله الكذب.

### الاحتفال بمواليد الأنبياء والأئمّة والصالحين

ومّا ذكرنا يعلم حكم الاحتفال بمواليد الأنبياء والأئمّة

والصالحين الذين هج الكتاب والسنة بمدحهم، فإن الاحتفال على النحو الراجح لم يرد في الشرع بخصوصه ولكن ورد الأصل الكلي الذي يسوغ هذا الاحتفال ويضفي عليه الشرعية .

فقد أمر الكتاب والسنة بحب النبي ﷺ ووده أولاً و تكريمه وتوقيره ثانياً، وحثّ عليهما في الشريعة قال سبحانه: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (١).

١. وقال رسول الله ﷺ: لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من والده وولده والناس أجمعين. (٢)

٢. قال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ الناس إليه من والده وولده. (٣)

٣. قال رسول الله ﷺ: ثلاث من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان وطعمه: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما وأن يحب في الله، ويبغض في الله، وأن توقد نار عظيمة فيقع فيها أحبَّ إليه من أن يشرك بالله شيئاً. (٤)

١. التوبة: ٢٤.

٢ و٣ و٤. جامع الأصول: ١/ ٢٣٧-٢٣٨ برقم ٢٠ و٢١ و٢٢.

وعلى ضوء ذلك فاقامة الاحتفالات والمهرجانات في مواليدهم والقاء الخطب والقصائد في مدحهم وذكر منزلتهم في الكتاب والسنة تجسيد للحب الذي أمر الله ورسوله به، شريطة أن لا تقترن تلك الاحتفالات بالحرام، ومن دعا إلى الاحتفال بمولد النبي ﷺ في أي قرن من القرون فقد انطلق من هذا المبدأ أي حب النبي ﷺ الذي أمر به القرآن والسنة .

هذا هو مؤلف «تاريخ الخميس» يقول في هذا الصدد: لا يزال أهل الإسلام يحتفلون بشهر مولده ويعملون الولائم ويتصدقون في لياليه بأنواع الصدقات، ويُظهرون السرور ويزيدون في المبرات ويعتنون بقراءة مولده الشريف ويظهر عليهم من كراماته كل فضل عظيم.<sup>(١)</sup>

وقال القسطلاني: ولا زال أهل الإسلام يحتفلون بشهر مولده ﷺ يعملون الولائم، ويتصدقون في لياليه بأنواع الصدقات، ويظهرون السرور، ويزيدون المبرات، ويعتنون بقراءة مولده الكريم، ويظهر عليهم من بركاته كل فضل عميم... فرحم الله امرء اتخذ ليالي شهر مولده المبارك أعياداً ليكون أشد علة على من في قلبه مرض وأعياء داء.<sup>(٢)</sup>

١. تاريخ الخميس: ١/ ٣٢٣ للديار بكري.

٢. المواهب اللدنية: ١/ ٢٧.

## البكاء على الميت

الحزن والتأثر عند فقدان الأحبة أمر جُبلت عليه الفطرة الإنسانية فإذا ابتلي بمصاب عزيز من أعزائه أو فلذة من أفلاذ كبده وأرحامه يحس بحزن شديد يتعقبه ذرف الدموع على وجناته، دون أن يستطيع أن يتمالك حزنه أو بكاءه.

ولا أجد أحداً ينكر هذه الحقيقة إنكار جِدِّ وموضوعية ومن الواضح بمكان أنّ الإسلام دين الفطرة يجاريها ولا يخالفها.

قال سبحانه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ (١).

ولا يمكن لتشريع عالمي أن يحرم الحزن والبكاء على فقد الأحبة ويحرم عليه البكاء إذا لم يقترن بشيء يغضب الرب.

ومن حسن الحظ نرى أنّ النبي ﷺ والصحابة الكرام والتابعين لهم بإحسان ساروا على وفق الفطرة.

وهذا رسول الله ﷺ يبكي على ولده إبراهيم، ويقول: «العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون» (٢).

روى أصحاب السِّير والتاريخ، أنه لما احتضر إبراهيم ابن النبي، جاء ﷺ فوجده في حجر أمه، فأخذه ووضعهُ في حجره، وقال: «يا إبراهيم إنا لن نغني عنك من الله شيئاً - ثم ذرفت عيناه وقال: - إنا بك يا إبراهيم لمحزونون، تبكي العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الرب، ولولا أنه أمرُ حقٌّ ووعدٌ صدقٌ وأتاه سبيل مائة حزنًا عليك حزنًا شديدًا أشدَّ من هذا».

ولما قال له عبد الرحمان بن عوف: أو لم تكن نهيت عن البكاء؟ أجاب بقوله: «لا، ولكن نهيتُ عن صوتين أحقن وآخرين، صوت عند مصيبة وخش وجوه وشق جيوب ورنّة شيطان، وصوت عن نعمة لهو، وهذه رحمة، ومن لا يرحم لا يُرحم».<sup>(١)</sup>

وليس هذا أول وآخر بكاء منه ﷺ عند ابتلائه بمصاب أعزائه، بل كان ﷺ يبكي على ابنه «طاهر» ويقول: «إن العين تذرف وإن الدمع يغلب والقلب يحزن ولا نعصي الله عز وجل».<sup>(٢)</sup>

وقد قام العلامة الأمينى في موسوعته الكبيرة «الغدير» بجمع موارد كثيرة بكى فيها النبي ﷺ والصحابة والتابعون على موتاهم وأعزائهم عند افتقادهم، وإليك نص ما جاء به ذلك المتتبع الخبير. وهذا هو ﷺ لما أُصيب حمزة - رضي الله عنه - وجاءت صفية بنت

١. السيرة الحلبية: ٣/٣٤٨.

٢. مجمع الزوائد للهيتمي: ٣/٨.

عبد المطلب - رضي الله عنها - تطلبه فحال بينها وبينه الأنصار، فقال ﷺ: دعوها، فجلست عنده فجعلت إذا بكت بكى رسول الله ﷺ وإذا نشجت نَسَجَ، وكانت فاطمة عليها السلام تبكي، ورسول الله ﷺ كلما بكت يبكي، وقال: لن أصاب بمثلك أبداً. <sup>(١)</sup>

ولما رجع رسول الله ﷺ من أحد بكت نساء الأنصار على شهدائهن، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: لكن حمزة لا بواكي له، فرجع الأنصار فقالوا لنسائهم: لا تبكين أحداً حتى تبدأن بحمزة، قال: فذاك فيهم إلى اليوم لا يبكين ميتاً إلا بدأن بحمزة. <sup>(٢)</sup>

وهذا هو عليه السلام يعني جعفرأ، وزيد بن حارثة، وعبد الله بن رواحة، وعيناه تذر فان. <sup>(٣)</sup>

وهذا هو عليه السلام زار قبر أمه وبكى عليها وأبكى من حوله. <sup>(٤)</sup>

وهذا هو عليه السلام يقبل عثمان بن مظعون وهو ميت ودموعه تسيل على خذه. <sup>(٥)</sup>

وهذا هو عليه السلام يبكي على ابن لبعض بناته، فقال له عبادة بن

١. امتاع المقرئزي: ص ١٥٤.

٢. مجمع الزوائد: ٦/ ١٢٠.

٣. صحيح البخاري: كتاب المناقب في علامات النبوة في الإسلام؛ سنن البيهقي: ٤/ ٧٠.

٤. سنن البيهقي: ٤/ ٧٠؛ تاريخ الخطيب البغدادي: ٧/ ٢٨٩.

٥. سنن أبي داود: ٢/ ٦٣؛ سنن ابن ماجه: ١/ ٤٤٥.

الصامت: ما هذا يا رسول الله ﷺ؟ قال: الرحمة التي جعلها الله في بني آدم وإنما يرحم الله من عباده الرحماء. (١)

وهذه الصديقة الطاهرة تبكي على رسول الله ﷺ، وتقول: يا أبتاه من ربّه ما أدناه، يا أبتاه أجاب ربّاً دعاه، يا أبتاه إلى جبرئيل ننعاه، يا أبتاه جنّة الفردوس مأواه. (٢)

وهذه هي - سلام الله عليها - وقفت على قبر أبيها الطاهر، وأخذت قبضة من تراب القبر فوضعتها على عينها وبكت وأنشأت تقول:

ماذا على مَنْ شَمَّ تربة أحمد      أن لا يشمَّ مدى الزمان غواليا  
صُبت على مصائب لو أنّها      صُبت على الأيام صرن لياليا  
وهذا أبو بكر بن أبي قحافة يبكي على رسول الله ﷺ ويرثيه بقوله:

يا عين فابكي ولا تسامي      وحُقَّ البكاء على السيد  
وهذا حسان بن ثابت يبكيه ﷺ ويقول:

ظلمت بها أبكي الرسول فأسعدت  
عيونٌ ومثلاها من الجفن أسعد

١. سنن أبي داود: ٥٨/٢؛ سنن ابن ماجة: ١/٤٨١.

٢. صحيح البخاري، باب مرض النبي ووفاته؛ مسند أبي داود: ١٩٧/٢؛ سنن النسائي: ٤/١٣؛ مستدرک الحاكم: ٣/١٦٣؛ تاريخ الخطيب: ٦/٢٦٢.



ويقول:

يُكُونُ مَنْ تَبْكِي السَّمَاوَاتُ يَوْمَهُ

وَمَنْ قَدْ بَكَتَهُ الْأَرْضُ فَالْنَّاسُ أَكْمَدُ

ويقول:

يَا عَيْنَ جُودِي بِدَمْعِ مَنْكَ إِسْبَالُ

وَلَا تَمْلُنَّ مِنْ سَخِّ وَإِعْوَالِ

وهذه «أروى» بنت عبد المطلب تبكي عليه ﷺ وترثيه بقولها:

أَلَا يَا عَيْنَ! وَيْحَكَ أَسْعِدْنِي بِدَمْعِكَ مَا بَقِيَتْ وَطَاوَعَيْنِي

أَلَا يَا عَيْنَ! وَيْحَكَ وَاسْتَهْلِي عَلَى نُورِ الْبِلَادِ وَأَسْعِدْنِي

وهذه عاتكة بنت عبد المطلب ترثيه وتقول:

عَيْنِي جُودًا طَوَالَ الذَّهْرِ وَإِنْ هَمِرًا

سَكْبًا وَسَخًّا بِدَمْعٍ غَيْرِ تَعْذِيرِ

يَا عَيْنَ فَاسْحَنْفِرِي بِالذَّمْعِ وَاحْتَفَلِي

حَتَّى الْمَمَاتِ بِسَجَلٍ غَيْرِ مَنْذُورِ

يَا عَيْنَ فَانْهَمِلِي بِالذَّمْعِ وَاجْتَهْدِي

لِلْمُصْطَفَى دُونَ خَلْقِ اللَّهِ بِالنُّورِ

وهذه صفية بنت عبد المطلب تبكي عليه وترثيه ﷺ وتقول:

أفاطمُ بكِّي ولا تسأمي  
 بصحبك ما طلع الكوكبُ  
 هو المرءُ يُكِيّ وحقّ البكاء  
 هو الماجد السيّد الطيّبُ  
 وتقول:

أعيني! جوداً بدمع سجم  
 يبادر غرباً بما مُهدم  
 أعيني! فاسخنفرا وأسكبا  
 بوجودٍ وحزنٍ شديد الألم  
 وهذه هند بنت الحارث بن عبد المطلب تبكي عليه وترثيه  
 وتقول:

يا عين جودي بدمع منك وابتدري  
 كما تنزل ماء الغيث فانشعبا  
 وهذه هند بنت أثاثة ترثيه وتقول:  
 ألا يا عين! بكِّي لا تملي  
 فقد بكر النعيّ بمن هويث  
 وهذه عاتكة بنت زيد ترثيه وتقول:

وأمسّت مراكبّه أوحشت  
 وقد كان يركبها زينها  
 وأمسّت تُبكي على سيّد  
 تردد عبرتها عينها

وهذه أم أيمن ترثيه عليه السلام وتقول:

عين جودي فإن بذلك للدم

ع شفاء فاكثري من بكاء

بدموع غزيرة منك حتى

يقضي الله فيك خير القضاء

وهذه عمّة جابر بن عبد الله جاءت يوم أُخِذَ تيكّي على أخيها

عبد الله بن عمر، وقال جابر: فجعلتُ أبكي وجعل القوم ينهاوني ورسول

الله عليه السلام لا ينهايني، فقال رسول الله عليه السلام: أبكوه ولا تبكوه فوالله ما زالت

الملائكة تظلمه بأجنحتها حتى دفتموه. <sup>(١)</sup>

نعم روي عن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عمر أن رسول

الله عليه السلام قال: «إِنَّ الْمَيِّتَ يَعَذَّبُ بِبِكَاءِ أَهْلِهِ». <sup>(٢)</sup>

أقول: إن ظاهر هذا الحديث يخالف فعل الخليفة في مواطن

كثيرة أثبتتها التاريخ.

منها: أنه بكى على النعمان بن مقرن المزني لما جاءه نعيه فخرج

ونعاه إلى الناس على المنبر ووضع يده على رأسه يبكي. <sup>(٣)</sup>

ومنها: بكاؤه على خالد بن الوليد عند ما مات وامتنعت النساء

١. الغدير: ٦/١٦٤-١٦٧.

٢. صحيح مسلم: ٣/٤١-٤٤، باب الميت يعذب ببكاء أهله عليه من كتاب الصلاة.

٣. العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي: ٣/٢٣٥.

من البكاء عليه، فلما انتهى ذلك إلى عمر، قال: و ما على نساء بني المغيرة أن يرقن من دمعهن على أبي سليمان ما لم يكن لغواً ولا لقلقة. (١)  
ومنها: بكاؤه على أخيه زيد بن الخطاب، وكان صحبه رجل من بني عدي بن كعب فرجع إلى المدينة فلما رآه عمر دمعت عيناه، وقال: وخلفت زيدا قاضياً وأتيتني. (٢)

فالبكاء المتكرر من الخليفة يهدينا إلى أن المراد من الحديث - لو صحّ سنده - معنى آخر، كيف وأنّ ظاهر الحديث لو قلنا به فإنه يخالف الذكر الحكيم، أعني قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾. (٣) فأبي معنى لتعذيب الميت ببكاء غيره عليه!!

### فقه الحديث

كلّ هذه النقول توقفنا على أنّ المراد من الحديث «إنّ الميت يعدّب...» - إن صحّ سنده - غير ما يفهم من ظاهره، وقد كان محتقناً بقرائن سقطت عند النقل، ولأجل ذلك توهم البعض حرمة البكاء على الميت استناداً إلى هذا الحديث، غافلاً عن مرمى الحديث ومغزاه.

١. العقد الفريد: ٣/ ٢٣٥.

٢. المصدر نفسه.

٣. فاطر: ١٨.

أخرج مسلم في صحيحه، عن هشام بن عروة، عن أبيه، قال: ذكر عند عائشة قول ابن عمر: الميت يعذب ببكاء أهله عليه، فقالت: رحم الله أبا عبد الرحمن، سمع شيئاً فلم يحفظه إنما مرّت على رسول الله ﷺ جنازة يهودي، وهم يبكون عليه، فقال: أنتم تبكون وأنه ليعذب. (١)

وأخرج أبو داود في سننه عن عروة عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه، فذكر ذلك لعائشة فقالت - وهي تعني ابن عمر - : إنما مرّ النبي ﷺ على قبر يهودي فقال: إن صاحب هذا ليعذب وأهله يبكون عليه. ثم قرأت ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾. (٢)

قال الشافعي: ما روت عائشة عن رسول الله ﷺ أشبه أن يكون محفوظاً عنه ﷺ بدلالة الكتاب والسنة، فإن قيل: فأين دلالة الكتاب؟ قيل: في قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى...﴾ و﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ (٣) وقوله: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ\* وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (٤) وقوله: ﴿... لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا

١. صحيح مسلم: ٣/٤٤، باب الميت يعذب ببكاء أهله عليه من كتاب الصلاة.

٢. سنن أبي داود: ٣/١٩٤، برقم ٣١٢٩.

٣. النجم: ٣٩.

٤. الزلزلة: ٧-٨.

تَسْعَى ﴿<sup>(١)</sup>﴾ فإن قيل: أين دلالة السنة؟ قيل: قال رسول الله ﷺ لرجل: ابنك هذا؟ قال: نعم، قال: أما أنه لا يجني عليك ولا تجني عليه. فأعلم رسول الله مثلما أعلم الله من أن جناية كل امرئ عليه، كما أن عمله لا لغيره ولا عليه. ﴿<sup>(٢)</sup>﴾

وأخرج مسلم عن ابن عباس: قال رسول الله ﷺ: إن الميت يعذب ببكاء أهله عليه، فقال ابن عباس: فلما مات عمر ذكرت ذلك لعائشة، فقالت: يرحم الله عمر، لا والله ما حدث رسول الله ﷺ أن الله يعذب المؤمن ببكاء أحد ولكن قال: إن الله يزيد الكافر عذاباً ببكاء أهله عليه، قال: وقالت عائشة: حسبكم القرآن: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ ﴿<sup>(٣)</sup>﴾

وما أخرجه مسلم عن هشام بن عروة هو الحقّ دون ما أخرجه عن ابن عباس لأنّ تعذيب الكافر ببكاء أهله عليه أيضاً يضادّ الذكر الحكيم.

١. طه: ١٥.

٢. اختلاف الحديث بهامش كتاب الأُمّ للشافعي: ٢٦٧/٧.

٣. صحيح مسلم: ٤٣/٣، باب الميت يعذب ببكاء أهله عليه من كتاب الصلاة.

## الحلف على الله بحق الأولياء

إن القرآن الكريم يصف بعض عبادة الله، بقوله:

﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ  
بِالْأَسْحَارِ﴾. (١)

فلو أن أحداً قام في آناء الليل وصلّى ناشئته ثم ابتهل إلى الله متضرعاً، و قال: «اللهم إني أسألك بحقّ المُستغفرين بالأسحار اغفر لي ذنبي» فهل يجوز ذلك أو لا؟

يمكن استكشاف الحكم من الأحاديث المروية عن النبي ﷺ والأئمة الأطهار.

١. قد أخرج الترمذي وابن ماجه والإمام أحمد عن عثمان بن حنيف: أن رجلاً ضريراً أتى النبي ﷺ وقال: ادعوا الله أن يعافيني، ثم نقلوا أن النبي ﷺ أمره أن يتوضأ ويحسن وضوءه ويصلي ركعتين ويدعوا بهذا الدعاء: «اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك نبي الرحمة، يا محمد

إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي لتُقضى اللهم شفّعه في». (١)

٢. وروى أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ الدعاء التالي: «اللهم

إني أسألك بحق السائلين عليك وأسألك بحق ممشاي هذا». (٢)

٣. أخرج البيهقي عن عمر بن الخطاب، قال: قال رسول

الله ﷺ: لما اقترف آدم الخطيئة رفع رأسه إلى السماء فقال: أسألك بحق

محمد الاغفرت لي. (٣)

٤. أخرج الحاكم في مستدركه، و الطبراني في معجمه الأوسط،

وأبو نعيم في حلية الأولياء، عن أنس بن مالك، أنه لما ماتت فاطمة

بنت أسد، حفرها قبرها، فلما بلغوا اللحد، حفره رسول الله بيده، وأخرج

ترابه بيده، فلما فرغ، دخل رسول الله فاضطجع فيه، وقال: الله الذي

يحيي ويميت، وهو حي لا يموت، اغفر لأمي فاطمة بنت أسد، ولقنّها

حجّتها ووسّع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي فانك

أرحم الرحمين. (٤)

١. صحيح الترمذي ٥، كتاب الدعوات، الباب ١١٩ برقم ٣٥٧٨؛ سنن ابن

ماجة: ١/٤٤١ برقم ١٣٨٥؛ مسند أحمد: ٤/١٣٨، إلى غير ذلك من المصادر، وقد

مرّ في مبحث التوسل.

٢. سنن ابن ماجة: ١/٢٥٦ برقم ٧٧٨، باب المساجد؛ مسند أحمد: ٣/٢١.

٣. البيهقي: دلائل النبوة: ٥/٤٨٩.

٤. الحاكم: المستدرک: ٣/١٠٨؛ الطبراني، المعجم الأوسط: ٣٥٦؛ حلية الأولياء:



إنّ هذه الأدعية وإن خلت من لفظ القسم بعينه إلاّ انها تضمنت معنى القسم لوجود باء القسم فيها فكأنّها يقول: اللهمّ إني أسألك بحقّ السائلين عليك أي أقسمك بحقهم.

وقد ورد الحلف على الله بحقّ الأولياء في غير واحد من أدعية أئمة أهل البيت عليهم السلام الذين هم أعدال الكتاب وقرناؤه بنصّ النبي صلى الله عليه وآله حيث قال: «إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي». <sup>(١)</sup> يقول الإمام الطاهر علي بن الحسين عليه السلام في دعاء يوم عرفة وهو يناجي ربه: «بحقّ من انتخب من خلقك، وبمن اصطفيت له لنفسك، بحقّ من اخترت من برّيتك، ومن اجتبيت لشأنك، بحقّ من وصلت طاعته بطاعتك، وبحقّ من نيّطت معاداته بمعاداتك». <sup>(٢)</sup>

لما زار الإمام الصادق عليه السلام مرقد جدّه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام دعا في ختام الزيارة بقوله: اللهمّ استجب دعائي، واقبل ثنائي، وأجمع بيني وبين أوليائي، بحقّ محمد وعليّ وفاطمة والحسن والحسين». <sup>(٣)</sup>

وهذه الأدعية عن أئمة أهل البيت عليهم السلام تدلّ على جواز الحلف على الله بحقّ أوليائه الصالحين.

١. حديث متواتر عن كلا الفريقين.

٢. ابن طاووس: الاقبال: ٣٠٩.

٣. الطوسي: مصباح المتهجد: ٦٨٢.

## سؤال وإجابة

ربما يقال: إن المسألة بحق المخلوقين غير جائز لأنه لا حق للمخلوق على الخالق.

والجواب أولاً: إن هذا اجتهاد في مقابل النص الصريح، إذ لو لم يكن للمخلوق حق في ذمة الخالق، فلماذا أقسم النبي آدم ﷺ والنبي محمد ﷺ على الله بالحقوق، الواردة في الروايات؟

وثانياً: إنه سبحانه يُثبت لعباد الله الصالحين حقوقاً في ذمته، ويقول: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾<sup>(١)</sup>، ﴿وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾<sup>(٢)</sup>، ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾<sup>(٣)</sup>، ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾<sup>(٤)</sup>.

وثمة مجموعة من الروايات تشير إلى وجود الحق للمخلوق في ذمة الخالق، وإليك نماذج منها:

١. «حق على الله عون من نكح التماس العفاف مما حرم الله»<sup>(٥)</sup>.
٢. قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة حق على الله عونهم: الغازي في

١. الروم: ٤٧.

٢. التوبة: ١١١.

٣. يونس: ١٠٣.

٤. النساء: ١٧.

٥. الجامع الصغير للسيوطي: ٣٣/٢.

سبيل الله، والمكاتب الذي يريد الأداء، والناكح الذي يريد التعفف»<sup>(١)</sup>.

٣. «أتدري ما حقّ العباد على الله»<sup>(٢)</sup>.

نعم من الواضح أنّه ليس لأحد بذاته حقّ على الله تعالى، حتى لو عبد الله قروناً طويلة، لأنّ كلّ ما للعبد من حول و قوة، ونعمة فهو لله تعالى فلم يُبدل العبد شيئاً من نفسه في سبيل الله حتى يستحقّ بذاته الثواب.

فإذا فما معنى الحقّ؟

والجواب: أنّ المقصود من الحقّ في هذه الأدعية أو الأحاديث هو المنزلة التي يمنحها الله لعباده مقابل طاعتهم وانقيادهم، لكن بتفضّل وعناية منه، لا بإستحقاق من العبد، فالحقّ الذي يُقسّم به على الله حق، جعله الله على ذمته لا أنّ العبد استحق حقاً على الله، ونظير هذا استقراضه سبحانه من عبده، يقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَنًا﴾<sup>(٣)</sup>.

إنّ هذا التعبير نابع من لطفه سبحانه وعنايته الفائقة بعباده الصالحين حتى يعتبر ذاته المقدسة مديوناً لعباده، وعباده دُيَّاناً أصحاب الحق، ففي هذا الأمر من الترغيب والتشجيع إلى طاعة الله ما لا يخفى.

١. سنن ابن ماجه: ٢/ ٨٤١.

٢. النهاية لابن الأثير: مادة حق.

٣. البقرة: ٢٤٥.

## الحلف بغير الله

هل يجوز الحلف بغير الله سبحانه كالحلف بالنبى ﷺ و القرآن والكعبة وغيرها من المقدسات أو لا؟

عندما نستنطق القرآن في ذلك، نرى أنه سبحانه حلف في سورة الشمس وحدها بثمانية أشياء من مخلوقاته هي: الشمس، ضحاها، القمر، النهار، الليل، السماء، الأرض، والنفس الإنسانية.<sup>(١)</sup> وكذلك ورد الحلف بغير الله في سورة النازعات والمرسلات والطارق والقلم والعصر والبلد وإليك نماذج من الحلف بالمخلوق في غير تلك السور.

﴿وَالْتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ\* وَطُورِ سِينِينَ\* وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾.<sup>(٢)</sup>

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى\* وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾.<sup>(٣)</sup>

﴿وَالْفَجْرِ\* وَلَيَالٍ عَشْرٍ\* وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ\* وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾.<sup>(٤)</sup>

١. الشمس: ١-٧.

٢. التين: ١-٣.

٣. الليل: ١-٢.

٤. الفجر: ١-٤.

﴿وَالطُّورِ﴾ وَكِتَابِ مَسْطُورٍ ﴿ فِي رَقٍ مَّنشُورٍ ﴾ وَالْبَيْتِ  
 الْمَعْمُورِ ﴿ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿<sup>(١)</sup>﴾  
 ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾<sup>(٢)</sup> .

فلو كان الحلف بغير الله شركاً وأمراً قبيحاً، فكيف يصدر منه سبحانه وقد وصف الشرك بالفحشاء، وقال: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرْنَا بِهَا قُلُوبُنَا إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾<sup>(٣)</sup> .

والقبيح قبيح مطلقاً دون فرق بين ارتكابه من قبل الخالق أو المخلوق، وهذا يُعرب عن أن الحلف بغير الله سبحانه إذا كان لغاية عقلائية أمر لا محذور فيه.

ثم إن الغاية - غالباً - من حلفه سبحانه بالأمور الكونية هي الإشارة إلى الأسرار المكنونة فيها ودعوة الناس إلى الامعان فيها وكشف رموزها، ولكن الغاية في حلف الإنسان بالذوات القدسية - وراء الإشارة إلى قدسيّتهم - هي أما الترغيب أو التهيب أو كسب ثقة المقابل.

وإذا عطفنا النظر إلى السنة النبوية نجد أن رسول الله ﷺ يحلف

١ . الطور: ١-٦ .

٢ . الحجر: ٧٢ .

٣ . الأعراف: ٢٨ .

بغير الله سبحانه.

أخرج مسلم في صحيحه: عن أبي هريرة، قال:

«جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أي الصدقة أعظم أجراً؟ فقال: أما - وأبيك - لتبتأنه أن تصدق وأنت صحيح صحيح تخشى الفقر وتأمل البقاء»<sup>(١)</sup>.

وأخرج أيضاً عن طلحة بن عبيد الله، قال: «جاء رجل إلى رسول الله - من نجد - يسأل عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: خمس صلوات في اليوم والليلة.

فقال: هل عليّ غيرهن؟

قال: لا... إلا أن تطوع، وصيام شهر رمضان.

فقال: هل عليّ غيرها؟

قال: لا... إلا أن تطوع، وذكر له رسول الله الزكاة.

فقال الرجل: هل عليّ غيره؟

قال: لا... إلا أن تطوع.

فأدبر الرجل وهو يقول: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص منه.

فقال رسول الله: أفلح - و أبيه -<sup>(٢)</sup> إن صدق.

١. صحيح مسلم: ٣/ ٩٤، باب أفضل الصدقة من كتاب الزكاة.

٢. أي: قسماً بأبيه، و «الواو» للقسم.

أو قال: دخل الجنة - وأبيه - إن صدق. (١)  
 وثمة أحاديث أخرى طوينا الكلام عن ذكرها مخافة الاطالة.

### سؤال وجواب

أخرج النسائي في سننه، عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: من حلف بغير الله فقد أشرك. (٢)

ومعه كيف يجوز الحلف بغير الله سبحانه؟

والجواب: أن رسول الله ﷺ يشير في قوله هذا إلى نوع خاص من الحلف الرائج في ذلك العصر وهو الحلف بالأصنام كاللات والعزى، ويدل على ذلك ما أخرجه النسائي أيضاً في سننه عن النبي ﷺ أنه قال: «من حلف، فقال في حلفه باللات والعزى، فليقل لا إله إلا الله». (٣)

وأخرج أيضاً عن النبي ﷺ قال: لا تحلفوا بأبائكم ولا بأمهاتكم ولا بالأنداد. (٤)

إن الحديث الأول يكشف عن أن رواسب الجاهلية ما زالت عالقة في بعض النفوس، فكانوا يحلفون بأصنامهم، فأمرهم النبي ﷺ أن يقولوا بعد الحلف «لا إله إلا الله»، لأجل القضاء على تلك الخلفيات.

١. صحيح مسلم: ١/٣٢، باب «الإسلام ما هو وبيان خصاله» من كتاب الإيمان.

٢ و ٣ و ٤. سنن النسائي: ٧/٨.

كما أنّ الحديث الثاني يشير إلى أنّ وجه المنع عن الحلف بالآباء والأمهات لشركهم ويؤيد ذلك اقترانها بقوله ولا بالانداد، والمراد منها هي الأصنام والأوثان.

ويظهر من كثير من الفقهاء جواز الحلف بغير الله غير أنّهم اختلفوا في وجوب الكفارة عند الحنث، وهذا يعرب عن تصافقهم على جواز الحلف وإنّما الاختلاف في انعقاده وكفارته، وإليك بعض النصوص:

قال ابن قدامة: الحلف بالقرآن أو بآية منه أو بكلام الله يمين منعقدة تجب الكفارة بالحنث فيها، وبهذا قال ابن مسعود، والحسن وقتادة ومالك والشافعي وأبو عبيد وعمامة أهل البيت.

وقال أبو حنيفة وأصحابه: ليس يمين ولا تجب به كفارة.<sup>(١)</sup>

وقال ابن قدامة في موضع آخر: ولا تنعقد اليمين بالحلف بمخلوق والأنبياء وسائر المخلوقات ولا تجب الكفارة بالحنث فيها، وهذا ظاهر كلام الخرقي وهو قول أكثر الفقهاء، وقال أصحابنا: الحلف برسول الله يمين موجبة للكفارة.<sup>(٢)</sup>

نعم اتفق الفقهاء على أنه لا تُفُضُّ الخصومات عند القاضي إلّا بالحلف بالله.

١. المغني: ١١/١٩٣، كتاب اليمين.

٢. المصدر نفسه: ١١/٢٠٩.



## تسمية المواليد بإضافة العبد

### إلى غير الله سبحانه

لقد تعارف لدى المسلمين تسمية أولادهم بعبد الرسول وعبد الحسين وما ضاهاهما ويجمع الكلّ اضافته إلى أسماء الرسول وأئمة الإسلام.

وربما وقع ذلك ذريعة للسؤال عن جوازه، فنقول:

تطلق العبودية ويراد منها أحد المعاني التالية:

١. العبودية هي التي تقابل الألوهية، وهي بهذا المعنى ناشئة من المملوكية التكوينية التي تعم جميع العباد، ومنشأ المملوكية كونه سبحانه خالقاً، والإنسان مخلوقاً.

وعلى ضوء ذلك فالعبودية إذا كانت رمزاً للمملوكية الناشئة من الخالقية، فهي لا تضاف إلا إلى الله سبحانه كما يقول سبحانه: ﴿إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا ابْنِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾<sup>(١)</sup>.

وقال سبحانه حاكياً عن المسيح: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾. (١)

٢. العبودية الوضعية الناشئة من غلبة إنسان على إنسان في الحروب وقد أمضاها الشارع تحت ظل شرائط معينة مذكورة في الفقه. فأمر الاسارى - الذين يقعون في الأسر بيد المسلمين - موكول إلى الحاكم الشرعي فهو مخير بين إطلاق سراحهم بلا عوض أو بأخذ مال منهم أو استرقاقهم.

فإذا اختار الثالث فيكون الأسير عبداً للمسلم، ولذلك ترى أنّ الفقهاء عقدوا باباً باسم «العبيد والاماء».

قال سبحانه: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾. (٢)

تجد أنه سبحانه ينسب العبودية والإمائية إلى الذي يملكونهم ويقول «عبادكم وإمائكم» فيضيف العبد إلى غير اسمه جلّ ذكره.

٣. العبودية بمعنى الطاعة وبها فسرها أصحاب المعاجم. (٣)

وهذا هو المقصود من تلك الاسماء فيسمون أولادهم باسم عبد الرسول أي مطيع الرسول وعبد الحسين أي مطيعه وكلّ مسلم مطيع

١. مريم: ٣٠.

٢. النور: ٣٢.

٣. لسان العرب: مادة عبد، وكذلك القاموس المحيط في نفس المادة.

لِلرَّسُولِ وَالْأُمَّةِ مِنْ بَعْدِهِ وَلَا شَكَّ أَنْهُ يَجِبُ إِطَاعَةُ النَّبِيِّ ﷺ وَ  
أُولِي الْأَمْرِ .

قال سبحانه: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي  
الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ (١)

فعرف القرآن النبي مطاعاً والمسلمين مطيعين، ولا عتب على  
الإنسان أن يظهر هذا المعنى في تسمية أولاده وأفلاذ كبده .

نعم المسمى بعبد الرسول هو عبد للرسول و في الوقت نفسه  
عبد لله أيضاً و لا منافاة بين النسبتين لما عرفت من أن العبودية في  
الصورة الأولى هي العبودية التكوينية التابعة من الخالقية ولكنها في  
الصورة الثانية ناجمة عن تشريعه سبحانه حيث جعل النبي ﷺ مطاعاً  
وأمر الناس باطاعته وشتان ما بينهما.

والحمد لله رب العالمين

جعفر السبحاني

قم - الجامعة الإسلامية

## فهرس المصادر

١. القرآن الكرم.
٢. اءاء علوم الدين: أبو ءامء مءمء بن مءمء الغزالي (المءوقى ٥٠٥هـ) طبع ءار القلم، بىروء، الطبعة الثالثة، صءء باءراف الشىء عبء العزىز السىروان.
٣. آءبار مءىنة الرسول: طبع مكة المكزمة ١٣٦٦، اءتم بشره صالح مءمء ءمال.
٤. اءءلاف الءءىء بهامش كءاب الأم: الشافعى: مءمء بن إءرىس (١٥٠-٢٠٤هـ) ءار المءرفة، بىروء - ١٤٠٨هـ.
٥. إرشاء السارى لشرء صءىء البءارى: أبو العباس أءمء بن مءمء القسءلانى (٨٥١-٩٢٣هـ) ءار إءاءء الأءراء العربى، بىروء.
٦. الاقبال: ابن طاووس: على بن موسى الءلى (المءوقى ٦٤٤هـ) طبع ءبرىز.
٧. الأم: الشافعى، مءمء بن إءرىس (١٥٠-٢٠٤هـ) طبع ءار المءرفة، بىروء - ١٤٠٨هـ.

- المعرفة، بيروت - ١٤٠٨ هـ.
٨. امتاع الأسماع: أحمد بن علي المقرئزي (المتوفى ٨٤٥ هـ) دار الأنصار، القاهرة - ١٤٠١ هـ.
٩. أنساب الأشراف: البلاذري: أحمد بن يحيى (المتوفى ٢٧٩ هـ) مؤسسة الأعلمي، بيروت - ١٣٩٤ هـ.
١٠. بحار الأنوار: محمد باقر المجلسي (المتوفى ١١١٠ هـ) مؤسسة الوفاء، بيروت - ١٤٠٣ هـ.
١١. بلوغ الأرب: السيد محمود شكري الألوسي (المتوفى ١٢٧٠ هـ) دار الكتاب العربي، مصر.
١٢. تاريخ ابن عساكر (تاريخ مدينة دمشق): علي بن الحسن بن هبة الله (٥٠٠ - ٥٧٣ هـ) دار التعارف، بيروت - ١٣٩٥ هـ.
١٣. تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي، أحمد بن علي (المتوفى ٤٦٣ هـ) المكتبة السلفية، المدينة المنورة.
١٤. تاريخ الخميس: الديار بكري، الشيخ حسين بن محمد، مؤسسة شعبان، بيروت.
١٥. تبرك الصحابة: محمد طاهر المكي (كان حياً عام ١٣٩٥ هـ)
١٦. تذكرة الفقهاء: العلامة الخلي (٦٤٨ - ٧٢٦) طبع المكتبة المرتضوية لإحياء الآثار الجعفرية، إيران.
١٧. تفسير الدر المنثور: جلال الدين السيوطي (٨٤٩ - ٩١١ هـ)

دار الفكر، بيروت - ١٤٠٣هـ.

١٨. تفسير الطبري (جامع البيان): محمد بن جرير الطبري

(المتوفى ٣١٠هـ) دار المعرفة، بيروت.

١٩. تفسير القرطبي (جامع أحكام القرآن): محمد بن أحمد الأنصاري

القرطبي (المتوفى ٦٧١هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت -

١٤٠٥هـ.

٢٠. جامع الأصول: ابن الأثير الجزري: المبارك بن محمد (٥٤٤هـ -

٦٠٦هـ) دار الفكر، بيروت - ١٤٠٣هـ.

٢١. الجامع الصغير: جلال الدين عبد الرحمان السيوطي

(٨٤٩-٩١١هـ) دار الفكر، بيروت.

٢٢. حلية الأولياء: أبو نعيم: أحمد بن عبد الله الاصبهاني

(المتوفى ٤٣٠هـ) دار الكتاب العربي، بيروت - ١٣٨٧هـ.

٢٣. الخصائص الكبرى: السيوطي: جلال الدين عبد الرحمان

(٨٤٩-٩١١هـ).

٢٤. الخلاف: الشيخ الطوسي: محمد بن الحسن (٣٨٥-٤٦٠هـ)

دار النشر الإسلامي، قم المقدسة.

٢٥. دلائل النبوة: البيهقي: أحمد بن الحسين (٣٨٤-٤٥٨هـ)

دار الكتب العلمية، بيروت - ١٤٠٥هـ.

٢٦. رحلة ابن جبیر: أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبیر الأندلسي،

- طبع دار صادر، بيروت - ١٣٨٤هـ.
٢٧. سفينة البحار: الشيخ عباس القمي (١٢٩٤ - ١٣٥٩هـ)  
 طبعة النجف الأشرف.
٢٨. السنن : ابن ماجة: أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني  
 (٢٠٧ - ٢٧٥هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت - ١٣٩٥هـ.
٢٩. سنن أبي داود: سليمان بن الأشعث السجستاني (٢٠٢ - ٢٧٥هـ)  
 دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٣٠. سنن الترمذي: محمد بن عيسى بن سورة (٢٠٩ - ٢٧٩هـ)  
 دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٣١. السنن الكبرى: البيهقي: أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي  
 (٣٨٤ - ٤٥٨هـ) دار الفكر، بيروت.
٣٢. سنن النسائي: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب (٢١٥ - ٣٠٣هـ)  
 دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٣٣. السيرة الحلبية: برهان الدين علي بن إبراهيم الحلبي  
 (المتوفى ١٠٤٤هـ) المكتبة الإسلامية، بيروت.
٣٤. السيرة النبوية: ابن هشام: عبد الملك بن أيوب الحميري  
 (المتوفى ٢١٣ أو ٢١٨هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٣٥. شرح المقاصد: سعد الدين التفتازاني (٧١٢ - ٧٩٣هـ) طبع  
 آستانه.

٣٦. شفاء السقام: نقي الدين السبكي (٦٨٣ - ٧٥٦هـ)  
الطبعة الرابعة - ١٤١٩هـ.
٣٧. الصارم المنكي: للشيخ عبد الهادي، طبع مصر.
٣٨. الصحيح: البخاري: محمد بن إسماعيل (١٩٤ - ٢٥٦هـ) مكتبة  
عبد الحميد أحمد حنفي، مصر - ١٣١٤هـ.
٣٩. الصحيح: مسلم بن الحجاج القشيري (المتوفى ٢٦١هـ)  
مؤسسة عز الدين، بيروت - ١٤٠٧هـ.
٤٠. صلح الاخوان: للخالدي.
٤١. العقد الفريد: ابن عبد ربه الأندلسي (٢٤٦ - ٣٢٧هـ)  
دار الكتاب العربي، بيروت - ١٤٠٦هـ.
٤٢. الغدير: العلامة عبد الحسين أحمد الأميني (١٣٢٠ - ١٣٩٠هـ)  
دار الكتاب العربي، بيروت - ١٣٨٧هـ.
٤٣. فتح الباري في شرح صحيح البخاري: أحمد بن علي بن حجر  
العسقلاني (٧٧٣ - ٨٥٢هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٤٤. فتوح الشام: محمد بن عمر الواقدي، دار الجيل، بيروت.
٤٥. فرقان القرآن: سلامة القضاء الشافعي، مطبعة السعادة، مصر.
٤٦. الفِصَل في الملل والأهواء والنحل: ابن حزم الأندلسي (المتوفى  
٤٥٦هـ) دار المعرفة، بيروت - ١٣٩٥هـ.
٤٧. الفقه على المذاهب الأربعة: عبد الرحمان الجزيري، دار



إحياء التراث العربي، بيروت.

٤٨. القاموس المحيط: الفيروز آبادي: محمد بن

يعقوب (٧٢٩-٨١٦هـ) القاهرة- ١٣٣٣هـ.

٤٩. كشف الارتباب: السيد محسن الأمين العاملي (١٣٧٣هـ)

الطبعة الأولى، دمشق.

٥٠. كنز العمال: المتقي الهندي (المتوفى ٩٧٥هـ) مؤسسة الرسالة،

بيروت- ١٤٠٥هـ.

٥١. لسان العرب: ابن منظور، محمد بن مكرم (٦٣٠ - ٧١١هـ)

قم المقدسة- ١٤٠٥هـ.

٥٢. مجلة رسالة الإسلام: تصدر عن دار التقريب بين المذاهب

الإسلامية، القاهرة، مصر.

٥٣. مروج الذهب ومعادن الجوهر: المسعودي: علي بن الحسين

(المتوفى ٣٤٥هـ) منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت- ١٩٦٥م.

٥٤. المستدرک: الحاكم النيسابوري: محمد بن عبد الله (المتوفى

٤٠٥هـ) دار المعرفة، بيروت.

٥٥. المسند: أحمد بن حنبل (المتوفى ٢٤١هـ) دار الفكر، بيروت.

٥٦. مصباح المتجهد: الشيخ الطوسي: محمد بن الحسن

(٣٨٥-٤٦٠هـ).

٥٧. معجم الزوائد: الهيثمي: علي بن أبي بكر (٧٣٥-٨٠٧هـ)

دارالكتاب العربي، بيروت - ١٤٠٢هـ.

٥٨. المعجم الكبير والأوسط: سليمان بن أحمد الطبراني

(٢٦٠-٣٦٠هـ) دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية، بيروت.

٥٩. المغني: عبد الله بن قدامة (٥٤١-٦٢٠هـ) دار الكتاب العربي،

بيروت - ١٤٠٣هـ.

٦٠. المفردات: الراغب الاصفهاني: الحسين بن محمد (المتوفى ٥٠٢هـ)

مطبعة الميمنية، القاهرة - ١٣٢٤هـ.

٦١. الملل و النحل: الشهرستاني: محمد بن عبد الكريم

(٤٧٩-٥٤٨هـ) دار المعرفة، بيروت - ١٤٠٢هـ.

٦٢. المواقف: القاضي عبد الرحمان الإيجي (المتوفى ٧٥٦هـ)

مطبعة السعادة، مصر - ١٣٢٥هـ.

٦٣. المواهب اللدنية: أحمد بن محمد القسطلاني (٨٥١-٩٢٣هـ)

المكتب الإسلامي، بيروت - ١٤١٢هـ.

٦٤. نهج البلاغة: جمع الشريف الرضي (٣٥٩-٤٠٤هـ) بيروت -

١٣٨٧هـ.

٦٥. وفاء الوفاء: علي بن أحمد السهودي (المتوفى ٩١١هـ) دار

احياء التراث العربي، بيروت - ١٤٠١هـ.

٦٦. اليواقيت والجواهر: عبد الوهاب الشعراني، مكتبة مصطفى الباي

الخليبي، مصر - ١٣٧٨هـ.



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

## فهرس المحتويات

الصفحة	الموضوع
٥	كلمة المؤلف
٧	كلمة التوحيد ونوحيد الكلمة
٨	اهتمام النبي ﷺ بوحدة المسلمين
	٩٠
	<b>الفصل الأول</b>
	<b>في تحديد الإيمان والكفر</b>
١٤	الإيمان رهن الاعتقاد بأصول ثلاثة
١٤	ما أثار عن النبي ﷺ حول دعائم الإسلام والإيمان
١٧	كلمات الأعلام حول حظر تكفير المسلم
١٨	السنة النبوية وتكفير المسلم
٢١	مسائل كلامية لا تمتُّ إلى العقيدة الإسلامية بصلة
	<b>الفصل الثاني</b>
	<b>التوحيد ومراتبه وأقسامه</b>
٢٣	الأول: التوحيد في الذات
٢٤	الثاني: التوحيد في الخالقية

الصفحة	الموضوع
٢٥	الثالث: التوحيد في الربوبية
٢٨	الرابع: التوحيد في التشريع والتقنين
٢٩	الخامس: التوحيد في الطاعة
٣٠	السادس: التوحيد في الحاكمية
٣١	السابع: التوحيد في العبادة
<b>الفصل الثالث</b>	
<b>حقيقة العبادة ومقوماتها</b>	
٣٣	العبادة في المقام
٣٥	ركنا العبادة: العملي والقلبي
٣٦	مقارنة بين الموحد والمشارك في الخضوع
٤٤	سؤال وإجابة
<b>الفصل الرابع</b>	
<b>تعريف العبادة</b>	
٤٧	التعريف الأول: الخضوع التابع عن اعتقاد بالوهبة المخضوع له
٤٨	التعريف الثاني: الخضوع التابع عن اعتقاد بربوبية المخضوع له
	التعريف الثالث: الخضوع التابع عن اعتقاد بتفويض الأمور
٤٩	للمخضوع له
٥٠	الخضوع التابع عن غير هذه الثلاثة ليس عبادة

## الفصل الخامس

## تطبيقات على ضوء تعريف العبادة

- ٥٥ ١. زيارة القبور
- ٥٦ الأثار البتاء لزيارة القبور
- ٥٧ زيارة قبر النبي ﷺ والروايات الواردة فيها
- ٦١ ٢. شد الرحال إلى زيارة قبر النبي ﷺ
- ٦٢ سيرة المسلمين على شد الرحال إلى زيارة النبي ﷺ
- ٦٣ سفر بلال لزيارة النبي ﷺ
- ٦٤ بعث عمر بن عبد العزيز بريداً من الشام إلى المدينة للزيارة
- ٦٦ سؤال وإجابة
- ٦٧ تفسير حديث «لا تُشدُّ الرحال إلأى ثلاثة»
- ٦٩ ٣. البناء على القبور
- ٦٩ مواراة المسلمين جسد النبي ﷺ تحت السقف
- ٧٠ القباب المشيدة على البقيع في العصور الأولى
- ٧٣ أرجوزة السيد الامين العاملي
- ٧٤ البناء على القبور من منظار آخر
- ٧٥ البناء على القبور من مظاهر الحب
- ٧٦ مظاهر الحب المختلفة
- ٧٧ المضاعفات الخطيرة لهدم الأثار الإسلامية
- ٧٨ تفسير حديث أبي هياج وان المراد هو النهي عن التسنيم

- ٨١ ٤ . بناء المساجد على القبور والصلاة فيها
- ٨٢ أصحاب الكهف واقتراح المسلمين بناء المسجد على قبورهم
- ٨٣ سيرة المسلمين في البناء على قبور الصالحين
- ٨٥ صلاة النبي ﷺ في بيت لحم
- ٨٦ تفسير اغناذ اليهود قبور أنبيائهم مساجد
- ٨٩ نقل كلام القرطبي والبيضاوي حول الحديث
- ٩١ ٥ . التوسل بالأنبياء والصالحين
- ٩٢ انقسام الأسباب إلى مادية وغيبية
- ٩٣ أقسام التوسل الخمسة
- ٩٣ أ. التوسل بدعاء النبي والصالحين في حياتهم
- ٩٤ ب. التوسل بذات النبي ﷺ وقديسيته
- ٩٥ الاستدلال بحديث الضرير على جواز الأمرين
- ٩٩ استسقاء عبد المطلب و أبي طالب بالنبي ﷺ
- استحباب اخراج الصبيان والنساء الطاعنات في السن في  
الاستسقاء
- ١٠١ التوسل بعم النبي
- ١٠٢ ج . التوسل بحق النبي والأنبياء والصالحين
- ١٠٣ الاستدلال بحديث أبي سعيد الخدري على هذا النوع من التوسل
- ١٠٥ د . التوسل بدعاء النبي ﷺ والصالحين بعد رحيلهم
- ١٠٦ الاستدلال بالآيات القرآنية على خلود الأرواح

الصفحة	الموضوع
١١١	دلالة الآيات على وجود الصلة بين الحياتين : الدنيوية والأخروية
١١٣	دلالة السنة الشريفة على الصلة بين الحياتين
١١٤	النبي ﷺ ينادى قتل قريش يوم بدر
١١٥	سؤال وإجابة
١١٧	هـ. طلب الشفاعة
١١٨	الاستدلال على جواز طلب الشفاعة بالسنة
١٢٠	٦. انتفاع الموتى بأعمال الأحياء
١٢٠	انتفاع الإنسان بعمله وعمل غيره
١٢٢	استغفار الملائكة للمؤمنين
١٢٣	دلالة السنة على انتفاع الموتى بأعمال الأحياء
١٢٥	جواز النذر لأهل القبور
١٢٦	السنة وجواز النذر للموتى
١٢٧	الغاية من النذر التقرب إلى الله وإهداء الثواب إلى أرواح الموتى
١٢٩	٧. التبرك بآثار الأنبياء والصالحين
١٣٠	تبرك يعقوب بقميص يوسف
١٣١	تبرك الصحابة بفضل وضوء النبي ﷺ وغسله وسور شرايه
١٣٣	٨. البدعة والاحتفال بميلاد النبي ﷺ
١٣٣	البدعة لغة غير البدعة شرعاً
١٣٤	البدعة هي إدخال ما ليس من الدين في الدين
١٣٧	الاحتفال بمواليد الأنبياء والأئمة والصالحين، له أصل في الشريعة



الصفحة

الموضوع

- ١٣٩ سيرة المسلمين والاحتفال بميلاد النبي ﷺ
- ١٤٠ ٩. البكاء على الميت
- ١٤١ بكاء النبي في غير واحد من المواقف على أحبه
- ١٤٣ بكاء الصديقة الطاهرة ﷺ على أبيها
- ١٤٤ بكاء الصحابة على النبي ﷺ وقصائدهم
- ١٤٧ حديث تعذيب الميت ببكاء أهله ونقده
- ١٤٨ نقل كلام الشافعي حول الحديث
- ١٥٠ ١٠. الحلف على الله بحق الأولياء
- ١٥١ حلف النبي ﷺ بحقه وبحق الأنبياء عند دفن فاطمة بنت أسد
- ١٥٢ ورود الحلف على الله بحق الصالحين في الأدعية
- ١٥٣ سؤال وإجابة
- ١٥٥ ١١. الحلف بغير الله
- ١٥٥ ورود الحلف بغير الله في القرآن الكريم
- ١٥٧ ورود الحلف بغير الله في السنة النبوية
- ١٥٨ سؤال وجواب
- ١٦٠ ١٢. تسمية المواليد بإضافة العبد إلى غير الله سبحانه
- ١٦٠ العبودية وتفسيرها وأقسامها الثلاثة
- ١٦٣ فهرس المصادر
- ١٧١ فهرس المحتويات

الحمد لله رب العالمين